إحدى عشرة خطيئة

رواية

إحدى عشرة خطيئة
رواية
أحمد قرني

الطبعة الأولى: 2019
رقم الإيداع: 2019/7284
ISBN: 978-977-802-137-0

دار النسيم للنشر والتوزيع
ت: 01006229487
e mail: daralnassim@yahoo.com
دار النسيم للنشر والتوزيع

المدير العام: **أشرف عويس**
إشراف فنى: **د. هند سمير**

إحدى عشرة خطيئة

رواية

أحمد قرني

هامش

تلك الحالة التى وصل إليها تُخيفنى، كلماته تُوحى بأنَّه قد يُسبب لى إزعاجًا بعد عودته، أخشى التمادى فى الأمر على هذا النّحو، يبدو على غير حقيقته عاجزًا بينما يُخفى حقيقةً أخرى، هو يحاول خداعى؟ يظننى امرأةً بلهاء، أُصبتُ بالعمى ولم ألحظ تصرفاته، أصبحتُ أكثر قلقًا عليه، الترامادول يُلازمه طوال الوقت، يتناول علبتيّ بيرة ويحرق السجائر بكثرةٍ، رأسي تنفجر، يُصيبنى الدوار أحيانًا حين أتذكر ما جرى.. لماذا لا يرد على هاتفه؟ كان مع رفقائه على كوبري قصر النيل، لكنَّه لم يعد حتى الآن.. اللعنة على المظاهرات، البعض يدبرها والبعض يكون ضحية لها، سأقومُ لأهاتف مروة عزيز، سأخبرها أن نلتقى فى كافيه زمان بشارع البحر الأعظم، أُريد أن أشمَّ رائحة هواءٍ نقي وأدخن الشيشة.. أمسكُ بالهاتف المحمول، أمر بالسبابة على قائمة الأسماء، أضغط على اسم "الغفلانة".. هكذا أُسميها، يأتينى صوتها، تمضى دقائق الممازحة كالعادة.. ثم أطلب منها أن تستعد للخروج، أُخبرها أننى أرغبُ فى تناول فنجان قهوة على كافية زمان وأدخن الشيشة، كما تعوَّدنا، يجبُ أن ترتدى الجينز سريعًا لا وقت لتسوية الشعر ولا الميك أب.. سنكتفى بروج خفيف على الشفاة، قلتُ لها: "لا وقت للبرايمير أو وضع كونسيلر، لن نرتدى فساتين مفتوحة أو جيب قصيرة، الشباب على الكافية، لا نريد لفت أنظارهم، الحلُّ هو ارتداء الجينز مع بلوزة طويلةٍ بالكاد تُظهر استدارة المؤخرة المحشورة فى جينز ضيق، ليس أمامى سوى أن أنزل وأُدير محرك سيارتى الهيونداى أكسيل الرصاصى وأمر عليكِ". لم أجد مبررًا لكريزة الضحك التى انتابتها.. قاطعتُ

ضحكاتها بصراخى، أخبرتها أن تستعد فورًا بلغةٍ حاسمة. لم تبال بما قلته، ردتْ بقهقهات عالية مزعجة، بحركةٍ لا إرادية أُبعد سماعة الهاتف وأصمُّ أُذنى، جعلتنى أشكُ فى إصابتها بلوثةٍ عقلية، ربما احتست كأسيّ بيرة، صرختُ فيها لتكف عن ضحكها الهستيرى.. "البيرة لعبتْ برأسك يا مروة". كانتْ ترفضُ شرب البيرة، تقولُ إنها تسبب لها آلامًا فى معدتها.. ومنذ أن امتلأت شوارع القاهرة بالسدادات الإسمنتية وقد تعوَّدت عليها.. شريف بهجت سامحه الله، أُبعد سماعة الهاتف عن أذنى لأتحاشي صراخها العالي وهى تسخرُ منِّى.. ماذا دهاها؟

- يا حبيبتى أنت نائمة فى العسل، لا تعيشين معنا، الحكومة فرضت حظر تجوال من أول أمس.

تتمادى مروة فى القهقهة، أشعرُ بالضيق، أقذفُ الهاتف على السرير، صياحُها مستمر، اللعنةُ على حظر التجوال الذى يمنعنى من تدخين الشيشة على كافية زمان. القاهرةُ أصبحت كئيبة.. لم يكن ممكنًا تقبُّل السجن الكبير الذى نعيشُ فيه الآن. قلقٌ وخوفٌ وطلقاتُ رصاص وفوضى وفراغ أمنى.. فجأةً تنقطعُ الكهرباء كعادتها، لا يمر يومٌ دون انقطاعها فى مشهدٍ عبثي، يصمتْ كلُّ شيء، أتململُ قبل أن أهم لأبحث عن الكبريت والشمعة.. يُضيء الكشاف الكهربائي تلقائيًّا، قبل أن أشرع فى رحلة البحث عنهما. أشعرُ بالملل.. نظرتُ إلى شعرى المجعد، قررت أن أستحم حتى أتخلص من الزهق.. ملأت البانيو ووضعت الشامبو.. دق جرس الباب، تجاهلت الطارق، لا أُريد مقابلة أحدٍ الآن، من عساه يأتينى؟ أحد الجيران سيطلب شمعةً أو كبريتًا، مشهدٌ متكرر، كأننا نشاهدُ فيلمًا سينمائيًّا سبق أن رأيناه مرات عديدة، لن نتوقع جديدًا، الأحداثُ هى ذاتها نفس الأحداث، لا جديد سيقع.. مرات عديدة

أُحاول إقناعه بضرورة تفهُّم موقفى، لا يجب أن يتواجد فى شقتى لأننى أعيش بمفردى، فى الشرق لا تُوجد امرأة تعيشُ بمفردها دون وصاية رجلٍ؛ سواء كان أبًا، زوجًا، أخًا.. المرأة التى تختارُ الوحدة سيرونها إمَّا عاهرةً أو مثقفةً كسرت قيودها بيدها، ستعيشُ مجبرةً على تحملِ سخافات مجتمعٍ ذكوريّ.

بسيط.. تأسره التفاصيل، يبحث عن تفاصيلى، فضوله أرهقنى، أشيائي الصغيرة تأسره، يحاول بشتى الطرق أن يقترب من مفرداتى، خصلة من خصال الرجل التى لا يكف عنها لملاحقة أنثاه.. لاحظت اهتمامه بعلبة مكياجى.. ألوان روج الشانيل، أجد آثارها على قمصانه، أشم رائحة بنك شوغر على ملابسه، سلسلة مفاتيحى الفضية التى يتدلى منها رأس دب يضعها بين إصبعيه ويلف السلسلة حول معصمه، كلُّ ما أخشاه أن يحاول الاقتراب من اللاب توب ليعرف مصيره، أعرفُ هواجسه، كرجلٍ شرقي لن يأمن لامرأة ساقطةٍ من وجهة نظره، تعيشُ بمفردها وتدخن الشيشة فى الكافيهات، ترتدى أحيانًا جيب قصيرة فوق الركبة، تتناول كأس بيرة بين حين وآخر. أسير خلف مظاهرةٍ تطالب بإسقاط النظام.. وفى اليوم التالى أتعاطفُ مع رموز النّظام القديم وأتصورها مؤامرةً كونية لإحداث فوضى. ما أبشع أن تجدَ نفسك مراقبًا طوال الوقت.. عينٌ تتلصصُ على أشيائي الصغيرة، مكياجى، اللاب توب، أقلامى، مشبك الشعر، دبابيسي، يطالع صورى الشخصية على صفحة الفيس.. يتلصص على دولابي الخاص؛ يُقلِّب فى رف "الأندر وير" ويدقق فى مقاسات حمالات الصدر، يقرأ ما أكتبه على حائط الفيس، يظن أنه سيقترب أكثر منِّى وسيشبع رغبته حين يقرأ شيئًا عن تفاصيل حياتى الشخصية، المرأةُ تخدعُ الرجل حين تكتب. أنا لا أكتبُ نفسي.. لا يمكن لامرأةٍ

عربيةٍ مهما امتلكت من شجاعةٍ أن تكتب عن أحاسيسها بصدق. كان يتابعنى بنهمٍ، سأفرد بنعومةٍ المستورايزر ماركة كلينك على وجهى، ثم أتبعه بفرد البرايمر لتجهيز الوجه لاستقبال الميك أب، أشياءٌ مملة لكن علينا أن نفعلها يوميًّا كجزء من عادات سخيفة لنصبح جميلات، بالفرشاة أوزع لكويدفونديشن.. ثم أمسحُ كونسيلر لانكوم أستى لودر خفيف حول العين لأخفى سوادًا نتيجة قلة النوم، بعدها أمر بالمحدد إيف سان لوران. ألاحظ اهتمامه المتزايد بمتابعتى، يتناولُ الروج ويمر على شفتى السفلى، يغرقها بالأحمر لتبدو أكبر من حجمها، يصرخ "تشبهين إيماستون، هذا أجمل". أضحك وأبدى تحفظى بينما كنت أخفى إعجابى بلمساته.. حتى إننى نصحته أن يعمل ماكيير، سيربح أكثر مما يربحه من عمله كتشكيلى، يضحك لتفاهتى ولا يرد. سئمت تطفله الزائد، التشكيلى تشغله التفاصيل الصغيرة، يتتبعها كطفلٍ يُمسك بلعبةٍ يُريد أن يُفسدها لمعرفة ما بداخلها.. النمنمات البسيطة تروق له، حتى أصابعى.. أحيانًا يمسكها، يُدقق فيها، يمرر كفه كأنَّه يتحسسُ مسام جلدى، كلما حاولت أن أشرح له ضيقي من تتبعه، يقهقه بصوتٍ عالٍ. وصل به الأمر حد الوقاحة حين دعانى أن أجلس أمامه كى يُدقق فى مساحة صدرى والفارق بين النهدين المتكورين بدوران ناعم.. أعرفُ أنَّه يخطط لرسم لوحةٍ لامرأةٍ أخشى أن أكون هى، المرة الأولى التى أضبطه فيها، لم أكن أعرف أنها عادة تلازمه، أذكر، كنتُ نائمةً كعادتى، أرتدى قميص نوم أزرق قصير بعد أن نزعت سنتيال البوش آب، أشربُ فنجان نعناع قبل النّوم عندما تُؤلمنى معدتى، دخلتُ السرير، بعد دقائق شعرتُ بحركةٍ خفيفةٍ بجوار رأسي، ضغطتُ على زر الأباجورة، هرب كلصٍ، دلف إلى المطبخ، تظاهر أنَّه يقشّر البرتقال بسكينٍ عريض

حين هرولتُ خلفه، كان يشيرُ لى مهددًا أنه ينتوى قتلى، أقفُ ساهمةً لثوانٍ، نضحك بعدها بصوتٍ عالٍ ونتقاسم البرتقالة.. يُصمم أن يضعَ قطعةً فى فمى، إصبعه ينزلقُ بين شفتيّ، تلسعنى رعشة، بأعجوبةٍ أفلتُ من نظراته الشهوانية التى تحتوى جسدى كلَّه.. اليوم همس فى أذنى.. "حان الوقت لأضع المرأة الجميلة فى لوحتى". ثم قال إنَّه يُؤجل هذا القرار ريثما يُنهى بعضَ مشاغله. خرج سريعًا من المطبخ، تركنى أُبحلق فى السقف.. حتى إننى نسيت أن أرفع الروب الذى انزلق من فوق جسدى ووقع على الأرض، شعرت بالخجل، لم أتحرك، بقيتُ واقفةً بقميصى الأزرق الشفاف، كنتُ أمامه شبه عارية، وبقى هو على حالته يتأملنى بعينين مفتوحتين تشهقان، نسيتُ أن أشدَّ حمالة صدرى حول نهديّ الصغيرين، تكوَّرا كرُمَّانتين خجلا أمام نظراته. دائمًا ما أُعلق السوتيان على الحامل الخشبي بجوار سريرى ليسهل تناوله عندما أصحو، ظلُّه تمدد على حائط المطبخ عندما أزحت الستارة واندفع الضوء نحوه.. تأكدتُ أنَّه يتلصص، هذه ليست المرة الأولى، فى إحدى المرات كان مختبئًا هناك خلف ستارة الحمَّام، حين نزعت البشكير الأبيض لألف جسدى، وجدته واقفًا أمامى يضحك بهستريا بينما أحاول أن أستر جسدى عن عينيه بالبشكير الذى سقط مرتين على الأرض، انحنيت لألتقطه.. جذبه بعيدًا، خطوت خلفه.. تمادى فى لعبته السخيفة، تخيلت نفسي بطلة فيلم من أفلام مروة عزيز التى ترسلها لى على الخاص ولا أفتحها. لم أعد أطيق تصرفات حمقاء حتى لو أتت من تشكيلى، لا يجب أن ينتهك خصوصيتى بهذه الطريقة الفجّة، النُّقاد البلهاء يتخيلون أن الكاتبة حين تكتب عن امرأةٍ سكيرةٍ متحررة وتعشقُ الرجال.. فإنها تكتبُ عن نفسها، يبدأون فى التحرش

بها. سوف أستدعيه إلى هنا وألقنه درسًا لن ينساه، يجبُ أن أقف فى وجه فضوله المتزايد، علىَّ أن أشغله بطريقةٍ تروقُ لرجلٍ غرائزى مولع باستدارة مؤخرة المرأة التى تُشبه قبةً سماويةً صغيرةً محشورةً فى بنطلون جينز يُظهرُ تكورها المتفرد، وفوقها الخصر النَّحيل كأسطوانةٍ ملفوفةٍ بمداد سحر، لا يكف عن ملاحقتها بعينيه. كان ظهر المرأة وهى تلتفت بملامحها الأستقراطية وأنفها الرفيع المرفوع لأعلى يبدو ظاهرًا فى أعلى اللوحة مستويًا، مؤخرتها التى تُشبه ثمرة الكمثرى بارزة فى منتصف اللوحة، كلَّ ما يحلم به أن يمرر أصابعه على تلك المؤخرة. هكذا قال لى. سقطتْ منى ضحكة خجلى. يظهر اسم "الغفلانة" على شاشة هاتفى المضاءة برنين موسيقى الرحبانى "حبيتك فى الصيف". أتجاهلُ الرد، متعبةً حتى الثمالة، سأدخن سيجارة إل إم.. وبعدها سأنام، أدير موسيقى مسلسل "رأفت الهجان" وأفكر فيما سأفعله به، ما لن يتخيله التشكيلى. تحركتُ ناحية شاشة اللاب توب، ضغطتُ على زر الباور، أضاءتْ حولها دوائر دخان سيجارتى.

(1)

كأنَّها أَسيل تتمددُ أمامى الآن، ترتكن بقبضةِ ذراعِها على مقبضِ الفوتيه المُحلَّى بالقطيفة الزرقاء، أُسمِّيها "فتاة المارينز".. ممشوقةٌ ذات مؤخرةٍ برازيلية تُشبه قبةً سماويةً صغيرةً، تتدلى ساقاها عاريتين، تمرجحهما برتابةٍ إلى الأمام والخلف.. تفركُ أصابعها بحركةٍ عصبية، شعرها النَّاعم يسقطُ ليغطى وجهها، تميل بجذعها النَّحيف للأمام لتكرش بظِفر إصبعها فى باطن قدمها اليسري، حركة اعتيادية لا تكفُ عنها، تحكُ أنفَها الصغير بالسبابةِ اليمنى.. فى حركةٍ لا إراديةٍ ترفعُ إصبعها عن الريموت، حواسها تحتشدُ للفرجة، برقةٍ لا تخلو من تصنُّعٍ يتحدثُ النَّجمُ عن فتاته الأولى، غاصت عيناه فى ماضٍ سحيقٍ، ظنَّ أنَّه تلاشى، لم تتحمله ذاكرتُه المتخمة بأفكارٍ فلسفيةٍ عن العدمية والفن وتفاصيل أخرى يومية تافهة، بقوةٍ تحضر فى المشهد، بكل حواسها تحتشدُ لتراقب تلك اللحظة. فجأةً لاحت أمامها ذكرى بعيدة، تمددتْ على الفوتيه، تماهتْ مع صورته التى امتلأ بها عرض الشاشة، أشياء تافهة نراها صدفةً، تستدعى ماضٍ سحيقًا، نظنُّه تلاشي وابتعد لكن فور ملامسته لأطراف الذاكرة يطلُ برأسه حاضرًا داخل واقعٍ محتشدٍ بتفاصيل تافهة. تتوالى كشريط السينما، تتراكم لتزيح الأشياء الحية داخلنا، الأشياءُ الحية لا تموت أبدًا حتى لو افتقدناها أو ظنناها راحت وتلاشت من حياتنا بفعل تفاصيل أخرى، لم يعد هناك صياح ولا هتافات، لم يعد هناك بشر ولا صلوات ولا خطب، صار كلُّ شيءٍ عبثًا، فر النَّاس تحت نيران الجحيم، هرعوا كأنّها القيامة والنهاية، دلفتُ من باب أحد العمائر، وقعُ أحذية ميري تتبعنى، وجدتُ بابًا، دلفت مسرعًا، لم أشعر من شدة

الدخان إلا وجسدى ينهار.. يتلاشى، رأسي تدور وقدماى عاجزتان عن حملى، حاولتُ أن أتعلق بالحائط، لم أستطع، سقطت، السقوط ليس انهيار جسد، السقوط انهيار إرادة، ضياع الهدف والرغبة فى الغياب. المدهش أنَّها لم تكن ممددةً أمامى على الفوتيه القديم المحلَّى بالقطيفة الزرقاء.. وربما حتى لا وجود لهذا الفوتيه، ليس كل ما تراه عيوننا كائنًا، ربما هو عجز حواسنا يمنعنا عن الحقيقة، الحقيقة الوحيدة الآن هذا الصقيع الشديد الذى يضرب أطرافنا بشدة فترتعش، أمَّا الحقيقة الثانية هو الصوت الذى يتنامى إلى سمعى ويزدادُ كالطنين، ما العمل؟ حين ينهار الجدار الفاصل بين الحقيقة والوهم، بين ما يجرى الآن وما جرى. ظللت متشبثًا بحديد النافذة، أتطلعُ عبرها ربما أعثر على مصدر هذا الصوت الذى يُشبه الأنين، كنتُ أظنُّ ذلك منذ قليل، كنتُ أظنُّه يُشبه المطرقة التى تُشبه بندول الساعة، بندول الساعة هو قاطرة الزمن التى لا تتوقف مثل جريان الماء فى النهر، جريان لا ينقطع ولا يهدأ لكنّنى الآن أكثر يقينًا من ذى قبل حيث يتضحُ الصوتُ أكثر، ليس كما ظننت، بل هو يُشبه مواءً، مواء قطةٍ مزّقها الجوعُ ولسعها بردُ "الونايسة"، القطة تتعلق بآخر أمل، حين لاح لها ضوء الشبّاك، تلفتُّ عن يمينى، لم أجد الفوتيه الأزرق، لم أجدها ممددةً إلى جوارى كعادتها تفرك أصابعها وتحك طلاء أظافرها بالمبرد.. تُريد أن تمحوه، تحك أنفها الصغير فى حركةٍ لا إرادية.. ربما يجد لها الطبيب النفسي معنى حين تتمدد أمامه على أريكةٍ مريحةٍ، تستمعُ إلى موسيقى عمر خيرت التى تندلعُ من هاتف الطبيب. فجأةً وقفتْ، تستعدُ للمرور من جوارى إلى الصالة حتى مدخل المطبخ، جاءتنى حركاتها وهى تصب الماء فى البرّاد، ضغطتْ بإصبعها على زر الإشعال الذاتى، جلتُ ببصرى باحثًا عن

القِطة التى تُرسل لى استغاثتها عبر النافذة لكننى لا أرى شيئًا، مثل حياتى التى مضت، لا أرى منها شيئًا الآن، صارتْ باهتةً مثل الأشياء التى أراها عبر النّافذة، مجرد خيالات أتوهمها حقيقةً، أعيشُ داخل سرابها، هكذا صرخ أبي "سعد الونايسي" فى وجهى ذات يوم، قال لى: "جابر سأصارحك، أنت تقبعُ فى خيالات وأوهام ليست موجودةً، أمك صفية هربتْ، لا تنادى تلك الدمية القماش المحشوة قطنًا باسمها مرةً ثانية". لن أصدقَ أبي، ما الذى يدعونى إلى تصديقه؟ أمى صفية ضحية لفتوره وفقره ورأسه الأصلع ودمامة ملامحه. "صفية هربتْ".. مقولة يرددها على سمعى كلَّ ثانيةٍ، كأنَّه يُعاقبنى أو يُعيِّرنى بها، تؤرقه تلك الدمية القماش التى أدعوها "ماما"، أسميها صفية وألعب معها فى دهليز البيت، حين يهبط الليلُ من جبل الونايسة العالى، تنامُ الدمية فى حضنى على المصطبة كما تفعلُ أمى. تركتنى صغيرًا فى الصف الثالث الابتدائي، تركتنى ورحلت عن البيت، رحلت خلفه- كما قال لى أبي سعد الونايسي- يقصدُ "سليم القفَّاص"، لا يحبُ أن ينطقَ اسمه، رجلها الذى أحبته، لم تحب أبي، نسيت صفية وهى تفاضل بين الرجلين، نسيت الصغير الذى كانت تُطعمه حبها كلَّ يومٍ، تركته يبحثُ عنها فى غُرف البيت، يبحثُ عن أمه فى أحلامه، يسأل الملاك الطيب الذى يزوره كلَّ يومٍ فى منامه أن يُعيدها إليه، يَعِدُه الملاكُ ويبتسم، لم يعد لك إلا هذه الحوائط التى تحيط بجسدك البدين، جسد مثل جسد السلحفاة لا يستطيع أن يلبي لك نداءً واحدًا، تتمنى أن تنفرجَ فجأةً تلك الحوائط، تنشقُ أمامك لتخرج من بينها كمارد من نَّار حين تنطلقُ أسرابُ حمامٍ للفضاء البعيد. سترى المرأة الجميلة فى عيادة الدكتور رمزى صدفةً، سحرتك بمؤخرة تُشبه مؤخرة "جينيفر لوبيز"، تلك المؤخرة التى

تساوى سبعة ملايين دولار، لن تكون شيئًا إلى جوار استدارة مؤخرة "أميرة الفايد" التى تُشبه قبةً سماويةً صغيرةً باستدارةٍ فائقة التكوين والإغراء والدهشة، تفوقُ مؤخرة "كيم كاردشيان".. عندما تشاهدها من خلف بنطال جينز مشدود، أو تشاهدها من خلف قميص أصفر شفاف.. ستبدو مشدودةً ولينةً فى آنٍ واحد، تُشبه بالون الماء.

(2)

حين تكوَّر جسدى داخل صندوق قديم فى مطبخ "أسيل" بعدما طرق الضابط باب شقتها بحثًا عنّى، توقفت عن التنفس وجمدت كلُّ أعضائي.. سمعته يسألُ أسيل بلغةٍ حازمةٍ إن كانت قد رأت إرهابيًّا هاربًا قد لاذ بالفرار من الميدان ودخل إلى العمارة، أجابته بالنفى، سدد لها الضابطُ نظرةً صارمةً، هزّتْ له رأسها وكتفيها علامةً على تأكيد النَّفى، قلبي ينبضُ خوفًا، دلف هو ورجاله المحملون بالسلاح سريعًا غير عابئين بنفيها.. لم يتركوا لها خيارًا. اندفعوا إلى الداخل بعدما أزاحوها جانبًا، بدت غاضبةً لا تقوى على فعل شيءٍ سوى أن تصرخ خلفهم وهم لا يُولون اهتمامًا لصراخها. انتشروا فى الشقة كالغبار بحثًا عنّى، كلَّما شعرتُ بحركة أحدهم وهو يقتربُ منى، ينكمشُ جسدى أكثر.. بردتْ أطرافي، تسارعت أنفاسي، غرقت فى بحر العرق، الآن تصورتُ حالة أسيل، بدتْ لى خائفةً مرتعدةً تصطكُ أسنانها، ترتعشُ أطرافها، تحاولُ أن تبدو متماسكةً حتى لا يلحظ الضابطُ عليها شيئًا يدعوه للشك، بعد دقائق اتجه الضابط وجنوده للخروج، قبل أن يلج من باب الشقة، يُلوح بكفِّه محذرًا فى وجه أسيل. مضى ليكمل البحث عنى فى مكانٍ آخر، دلفتْ أسيل سريعًا، فتحتْ الصندوق، كنتُ على وشك الموت، أنفاسي تلهث، خرجتُ من الصندوق لأرى فتاةً تُشبه "إيما ستون"، لم أتمالك نفسي، احتضنتها عرفانًا لجميلٍ أسدته لرجلٍ لا تعرفه، بحركةٍ من ذراعيها دفعتنى للخلف كأنّها فوجئت بتصرّفي المباغت، اعتذرت وأبديت أسفي على التسرّع، تغرق فى الخجل، وضعت أمامى علبة سجائرها ومضت إلى المطبخ تُعد الطعام، سألتنى بصوتٍ يختلطُ

بأصوات الأطباق التى تغسلُها تحت الماء:
- لماذا يأتى مثلك إلى الميدان؟
- صدفة.
- اسمك؟
- جابر الونايسي.. وأنتِ؟
- أسيل
- بل، إيما ستون.
- تقصد الممثلة؟ إلى أى فصيلٍ تنتمى؟
لم أجبها، لأننى لم أكن أعرفُ ما الإجابة المناسبة، لهذا تبدو كلُّ الإجابات شركًا مخادعًا ربما تهوى بك فى بئرٍ مظلم، يُحيِّرنى السؤال، الكل يتربص بالكل، هيئتها لا تنم عن انتمائها لجماعةٍ أصولية، ربما من فتيات اليسار أو متمردات جماعة الاشتراكيين الثوريين، أو ربما تنتمى لجماعات المثقفين الذين يتحدثون بلغةٍ واحدةٍ على كافيه زهرة البستان ويدخنون الشيشة، كأنَّهم ممثلون يؤدون أدوارًا فى مسلسل تركى مدبلج، الكلماتُ جمدت على شفتىَّ، قالتْ بصوتٍ مرتفعٍ كأنَّها تقرأ ما بداخلى:
- لست ممثلةً مثل معشوقتك إيما ستون.. بل كاتبة.
لذتُ بالصمت، لم يكن أمامى غير الصمت وأنا أتابعُ حديثها.
- مجرد كاتبة مغمورة، ليس لى قُرّاء، أخذتُ دورات فى فن كتابة السيناريو، وتراسلت مع شركات الإنتاج، وبسبب الثورة تعطلت كل المشاريع، مثل كلّ شيءٍ توقف فى البلد. عاقبتُ نفسي فانشغلت بغسل الأطباق والفناجين. هل تُريدُ أن تعاقب نفسك مثلي؟
السؤال كان غريبًا لم يخطر لى على بال.. أُعاقبُ نفسي، لم أرد، لم أجد

إجابةً مناسبة. أكملتْ ثرثرتها من المطبخ وأصوات قرقعة الأطباق تحت الماء فى الحوض تختلط بحديثها:

- يبدو أنك موافق، سوف أساعدك فى العقاب؛ سأطرح عليك بدائل، أم تحب أن تختار لنفسك العقاب المناسب؟

لم أفهم حديثها المتقطع عن العقاب، حشرجةُ صوتها وخشونتها التى ظهرت فجأةً عقب إغلاقها الباب خلف الضابط، جعلتنى أتأملها. يبدو أنها تلقت تدريبات على القسوة، لفت انتباهى صورةُ الرئيس السَّادات المعلقة على حائط الصالة، الرئيس يُسلّمُ على شخصٍ ويمنحه شيئًا، اقتربتُ من الصورة لأتعرف عليه.. ربما يشبهها. كانت أسيل خلفى، تنبَّهت لوجودها.

- هذا أبي حين حصل على الوسام.. يُسلم على الرئيس السَّادات.

- لم فتحتِ باب شقتكِ لى؟

- لا أعرف، صدِّقنى.

- سأقضي بضع ساعات حتى أطمئن إلى رحيلهم وأنصرف.

- هل تظنهم سيرحلون سريعًا؟

- أكيد.

- ربما يمكثون يومًا أو يومين أو يزيد.

- معقول؟

- ربما يكون عقابك أن تمكث هنا فى شقتى مرغمًا.. ما رأيك؟

كان حديثها غامضًا بالنّسبة لى، لم أفهم حديثها المتكرر عن العقاب، أىُّ عقابٍ.. ولمنْ؟! أى عقاب وأنا برفقة الجميلة إيما ستون؟

قطعتْ أسيل الحوار الذى أردتُ أن أُكمله، فجأةً ارتسمت على وجهها ملامح غضب، تستطيعُ أن تبدل تعبيرات وجهها بقُدرةِ ممثلٍ محترف،

أشاحت بوجهها لتعلن عن رغبتها فى عدم الاسترسال، لم يكن فى إمكانى الاعتراض، الاعتراض يحتاجُ إلى إرادةٍ، إنها تملك كلَّ أسلحة الأنثى، عينان لامعتان تنمان عن ذكاء متقد، بشرتها الخمرية التى تمنحها الهدوء والدعة، ملامح وجهها الطيبة التى تقتربُ من وجه نجوى إبراهيم فى فيلم الأرض، استدارة مؤخرتها وخصرها النحيف يحيلانك إلى مشهد فتاة برجوازية تخفى طيبتها بشراسةٍ مصطنعة، منحوتة القوام كتمثال فرعونى، تبدأ أولى خطوات أنوثتها كفتاةٍ جامعيةٍ فى السنة النهائية.

تركتنى ودخلت مطبخها ثانيةً.. ربما لتعد مشروبًا، رائحة النسكافية داهمت أنفي.. حككتها بعصبيةٍ. أتأملُ حالتى، أجدنى مهزومًا.. أتراجعُ آلاف الخطوات بعد أن فقدت عالمى، كأننى كنتُ أُشاهد فيلمًا في سينما مترو وحين انطفأ ضوء الشاشة هرب الأبطال. إنها كاتبة كما قالت، سأسألها عندما تعبر من الصالة عما حدث لى فجأةً بعد خروجى من السجن؛ فقدتُ أميرة الفايد.. عطية منصور، حتى سعاد ممرضة الدكتور رمزى، ربما تجد مبررًا لما وقع من أحداث بخيالها ككاتبة، سأصارحها بأننى أخشي أن أكون مجرد بطل فى رواية وأردتُ أن أتمرد على الكاتب فخرجت إلى حيث لا يعرف مكانى أحد، ربما حاول الكاتب إذلالى بفعلٍ درامى مفتعل.. تهتُ وسقطتُ عن آخرى كعمارةٍ تنهار كلُّ طوابقها، أى جنونٍ يدفعنى لأسأل أسئلةً حمقاء كتلك؟ لا يجب أن أخرج من هذا العالم، يجب أن أظل فيه، التمرد يعنى أن أفقد كل شيءٍ بسهولةٍ، سأبقى هنا حتى يمل الضابطُ ويرحلُ مع عساكره، حينها سأعود. لملمتُ نظراتى المتحسِّرة التى وقعت على الأرض حين مرت أمامى أسيل حاملةً فنجان النسكافيه، استسلمتُ لنظراتها الحادة لحظة الشروع فى العقاب، تأخذُ رشفةً من الفنجان.. منظر الدخان

المتصاعد بالشاشة كان كثيفًا.. لفت انتباهى حجم الدمار الذى لحق بكل شيءٍ، رائحةُ شواء الأجساد تموجُ فى أنفى، رائحةٌ لا تُنسى، القنابل المسيلة للدموع يشق دخانها صدورنا، تسعل.. وتنهمر عينى بالدموع، أشعر بالاختناق، حالة ألفها كلُّ سكان القاهرة فى معظم شوارعها.. الميدان الذى تطل عليه شقة أسيل استحال إلى كومةٍ من تراب.. لولا أسيل لكنتُ الآن فى قبضةِ رجال الأمن..

- ربما يأتون خلفك فى أية لحظة.

ضحكتْ أسيل ضحكةً ليست شقراء كإيما ستون، كانت شريرةً ساخرةً ماكرة، لعقتْ أصابعها كأنَّها تُعد خطةً فى ذهنها، هل تفكر الآن فى اختيار الطريقة؟ عبرتْ الصالة إلى المطبخ لتعيد الفنّجان الفارغ دون أن تعيرنى اهتمامًا، شيء ما يدور فى عقلها.. لا أعرفه، بدأتُ أتوجس منها، سأصبحُ فريسةً لتطفلها الزائد عن حده.. فأرًا للتجارب، جلبنى إليها حظى العاثر لتحقنه بمادةٍ مشعة، قامتها الممشوقة تُشبه ضابطات المارينز المدججات بالأسلحة، بلسانها الحاد ستلقى بكلمات بذيئة فى وجهى كلما نلتقي، ستحاول أن تسخر من أفعالى، ستتعامل معى كأسير حرب لم تخضها أسيل، سأحاول أن أقاوم ضراوتها، لن أقف مكتوف الأيدى مستسلمًا كما فعلتُ مع أميرة الفايد، سأُظهر لها "بروفايل" لوجه شرس لجابر الونايسي، خبرة اكتسبتها من تدريبات سعاد الممرضة، جابر الذى أكل من صناديق قمامة القاهرة حين دخلها لاجئًا ومارس فيها كلَّ أنواع الشر لا يمكن أن يصبح ألعوبةً فى يد فتاة المارينز. أتراجع عن قرارى كلما اتخذته، أود أن ألفَّ شعرها حول معصمى، أجرَّها بمنتهى الشراسة على بلاط الشقة حتى تعرف من أنا، لن تجرؤ على إهانتى أو مجرد التفكير فى عقابي كما تظن، لا أعرف، القرارات تُولد

داخلى وتموت، كيف لى أن أواجه أسيل التى تُشبه إيما ستون فى جمالها الأنثوي الطازج؟ تمرجحُ ساقيها العاريتين وهى جالسة على الفوتية. حالاً ستعد خطةً ربما لإذلالى، أفطن إلى نظرتها المتحفزة كقطةٍ، ستمارس قسوتها ببرودٍ، كأنَّها تضعُ روجًا أحمر على شفتيها الصغيرتين. فى أيام رتيبة ثقيلة تمر ببطء كهذه سيكون مُسليًا لفتاة مثلها أن تشاهد فأر تجارب يتقافز أمامها فيثير ضحكها وشفقتها معًا.. جابر الونايسي الذى حمل على ظهره إحدى عشرة خطيئة، يملك من الحكمة ما يكفى لكى يتجاوز أزمةً صغيرةً مع فتاةٍ لاهية، مجرد كاتبة مغمورة ليس لها قُرّاء، وجدتْ فى هاربٍ مثلى لعبةً مُسلية، حبستُ غضبي، عشتُ حياتى كلها أتمرن على المهادنة، التخاذلُ والخنوعُ وفعل الاستسلام؛ كل هذا يحتاجُ لتمارين شاقة، تلقيت تدريباتها بمهارةٍ على يد سعاد الممرضة، قالت لى وهى جالسة على حافة السرير تدعك كعب قدمها بزيت الصّبار: "الفقراء أمثالنا يجبُ أن يتمرنوا على الانحناء والاستسلام حتى يحصلوا على رغيف خبز بدلاً من أن يأكلوا من صناديق القمامة". ارتكنت إلى الحائط، أتابع دفعات المتعدد التى تخرق سكون الميدان، إنّهم يقبعون أسفل العمارة، ينتظرون أن أقع فى أيديهم، لن يرحمونى. ما أبشع أن تنهزمَ كلُّ أحلامك، تسقطُ من جيبك فجأةً دون سببٍ واضح.. الهزيمةُ تلاحقنى.. أين السخفاء الذين يزعمون أننا نمتلك مصائرنا؟! إننا لعبة فى كف هذه الحياة، تُلقينا متى تشاء من حقيبتها وتلهو بنا، تجعلُ من أحدنا سارقًا والآخر ضابطًا والثالث قاضيًا.. تجعلُ من أحدنا فقيرًا معدمًا وتجعل من الآخر غنيًّا مُترفًا. إنها توزع علينا أدوار البطولة والكومبارس وبينهما أدوار ثانوية. لا يملك أحدنا سوى الاستسلام، كان يمكنها أن تجعل منى غنيًّا مثل أميرة الفايد، بل ومنحتها ملامح امرأةٍ

فاتنةٍ بجسدٍ ممشوق بينما منحت سعاد ممرضة الدكتور رمزى- على استحياء- جسدًا مترهلاً وملامح أنثي بليدةٍ.. ومؤخرة على شكل دمعة بمنظر قبيح مليئة بالشحم، مارستُ معها فحولةً مراهقةً. أشعرُ فى أحيانٍ كثيرة أننا داخل سيناريو كالذى تكتبه أسيل، سيناريو لكاتبةٍ مبتدئة، تعبثُ بالممثلين، توزع الأدوار والوظائف على هواها، لا تريد أن تهب سعاد جمالاً يليق بأنثى فاتنة، ولم تجعلنى ضابطًا مثل الذى طاردنى منذ قليل، ستعطينى أسيل دور الفقير الضعيف سارق نقود كيس الجامع، وحتى تتقن لعبة الدراما ستلطخُ هذا الصغير بالعار دون جريرةٍ عندما تهربُ أمه "صفية عمران" مع عشيقها "سليم القفاص" وتتركه يتجرَّعُ الألم والحسرة من نظرات أهل الونايسة القاسية. نساء الونايسة يُعلنَّ رفضهنَّ لسلوك صفية عمران، لكن فى داخلهنَّ كنَّ يحسدنها على شجاعتها وجرأتها حين اختارت حريتها ورحلت كعصفور بعد أن كسرت قيدها، هل تملك واحدة منهنَّ هذه الشجاعة؟ السعادةُ تحتاج إلى قفزةٍ فى الهواء، قليلات من يمتلكن شجاعةَ القفز ليحصلن عليها، كلهنَّ يرزخن فى القيود رغبةً فى الأمان، كُلهنَّ ينظرن إلى صفية بإعجاب، إعجاب يخفينه عن أعين الرجال فى الونايسة، الرجال الذين فرحوا لأن عصفورة مثل صفية طارت من عش سعد الونايسي، الفلاح الفقير، كانوا يحقدون عليه عندما فاز بجسد مثل جسد صفية، ووجه مثل وجه صفية، وصوت مثل صوت صفية الناعم، امرأة لا مثيل لها فى الونايسة، كيف وقعت فى حجر سعد الونايسي بقراريطه القليلة ورأسه الأصلع وقدمه الحافية المتشققة؟ وحده الذى امتلك شجاعته وطرق باب عمران والدها ليطلب يد صفية دون رجال الونايسة الذين عرفوا قصتها مع سليم القفاص، كلٌّ منهم تمنَّاها لنفسه لكنَّ

أحدًا لم يجرؤ على التقدم لخطبتها خشيةَ الفضيحة، لا يخفى على أحدٍ فى الونايسة قصة عشق صفية عمران وسليم القفاص.الشاب الذى يكمل تعليمه فى المدينة هناك، وحين سافر لاستكمال تعليمه فى الخارج انقطعت أخباره، لم تعرف عنه صفية شيئًا، ظنت أنه هجرها، الشيطانُ ألقى تلك الأفكار الملعونة فى عقل صفية فاستسلمت، قال لها الشيطان وهى تصفف شعرها بمشط خشبي أمام نصف مرآةٍ معلقةٍ على حائط حجرة نومها.. "نسيك سليم، شغلته فتيات البلاد الباردة ذوات الأجساد البيضاء الناعمة، صاحبات الشعر الذهبي والكلمات الرقيقة التى تذوب على شفاههن الحمراء بسحرها الذى لن يقاومه سليم القفاص ابن الونايسة، ربما أغوته الآن إحداهن بجمالها فأنسته صفية ابنة الونايسة". كلمات الشيطان الذى حط على رأسها فى ذلك اليوم، جعلها تقبل سعد الونايسي حين تقدم لخطبتها على الفور. قليل الجسم.. نحيف، عظام وجهه بارزة من تحت جلده، يضع على رأسه طاقية ليف بُنية اللون، يرتدى مثل أهل الونايسة جلبابًا مقلمًا وينتعلُ أحيانًا شبشبًا تبرز منه أصابعه الأمامية بأظافرها المدببة كمُدية، يظهر فى المؤخرة كعب قدمه المتشقق لكثرة سيره حافي القدمين، حين قبلته صفية عمران زوجًا لها صرخت الطيور فوق جبل الونايسة وهاجت العصافير، انتشر الخبرُ الأسودُ على مصاطب الرجال طوال الليل، لا سيرة ولا حديث إلا عن صفية وسعد الونايسي، قمر الونايسة ينام الآن فى حضن غرابٍ أسود بريشه المدبب ومنقاره الحاد، هذا يوم نحسٍ.

مضت السنوات وعاد سليم القفاص فى ليلةٍ مُقمرةٍ، أضاء قلبُ صفية عمران يومها، حنَّت لعشقها الذى لم يبرح قلبها، طارت فى كفِّه إلى القاهرة، خرجت فى ليلةٍ ظلماء، عبرت الطريق الترابي، كان فى انتظارها

عند المنعطف البحرى، حملها فى سيارته النيسان الزرقاء إلى البعيد، بعد أن ضغط على دواسة البنزين فانطلقت مخلفةً خلفها غبارًا كثيفًا. ليتنى أستطيعُ أن أفلت الآن من قبضة أسيل، فتاة المارينز تريدُ أن تلهو بأسيرها كما كانت تفعلُ ضابطات المارينز فى سجن "أبو غريب"، أسيل جعلتنى مجرد هاربٍ ضعيف خائف، يرتجفُ وهو يختبئ فى شقةٍ بعمارات تُشرفُ على الميدان. ليتنى وقعت فى قبضة رجال الأمن، على الأقل لم يكن إحساسي بالهزيمة يتفاقم. انقطعت الكهرباء فجأةً وساد الظلام، تنفستُ الصعداء بعد أن اختفيت عن عيني أسيل اللتين تراقبانى طوال الوقت، طرقعات شبشبها وهى ذاهبة إلى المطبخ، عادت وفى يدها شمعة صغيرة بالكاد أرى ملامحها..

- ملعونة الكهرباء، تنقطع بشكلٍ متكرر، الحكومةُ لا تفعل شيئًا.

وضعتْ الشمعة فوق المنضدة التى تتوسط الصالة، راحت تسألنى أو بالأحرى تستجوبنى كضابط مباحث محترف. أسئلةُ أسيل تفتحُ عالمًا من الفوضى داخلى.. اليوم الذى خرجت فيه من الونايسة هو أسود يوم فى حياتى، لم يكن لدى خيار آخر، الرحيل عن الونايسة كان طوق النجاة، حملنى فتحى القبَّانى على دراجته النّارية فى ساعة الفجر، حملنى إلى موقف سيارات القاهرة، نظر لى آسفًا وملامحه يُخيم عليها حزنُ الفراق والأسى لحالى.. "ليس أمامك حل آخر سوى الرحيل، بقاؤك فى الونايسة أصبح مستحيلاً بعدما اقترفت يداك هذا الذنب العظيم، لن تغفر لك الونايسة جُرمك، لن ينسى أهلها البسطاء الطيبون فعلتك، ستصبح عارًا يلطخ كلَّ من يقترب منك". سأصبح عارًا، تذكرت صورة أحدب نوتردام، سينحنى ظهر أبي ويتقوس مثله عندما يحمل عارى فوق العار الذى يحمله سعد الونايسي بهروب صفية من بيته تحت إبط عشيقها،

أشفقت عليه.. ما أبشع أن تُجبر على الرحيل عن بلدتك وأهلك وناسك، لم تفلح كلُّ هذه السنوات أن تُنسينى ليلةً من ليالى الونايسة ولا جبلها العالى الذى كنَّا نقفُ فى مواجهته صغارًا، كنَّا نتحداه، نراه كائنًا عملاقًا ربما يُمسكنا بكفه الضخمة ونحن نلعب، يقذفنا فى بطنه الواسعة كغولٍ كبير، لماذا يخلق اللهُ الشر ويدعه يدخلُ إلى نفوسنا إذا كان وجوده ضرورة كما يقول الفرنسي لافيل؟ رددتْ أميرة الفايد كلماته أمامى.. "وجود الشر ضروري.. فلا يمكن قيام حياة روحية دون التصادم معه".
فلماذا يحركنا لارتكاب حماقات صغيرة ندفع ثمنها غربةً وضياعًا وشتاتًا عبر المدن؟ لكننا أبدًا لن نجد مدينةً تحن على غرباء ولا تطمئن لغير أهلها، ستظلُ صرختى التى أطلقتها فى ذلك اليوم مدويةً، عبرت البيوت واصطدمت بجبل الونايسة العالى الراسخ، ارتدَّ صداها للبيوت، سكنت الجبال العالية، أحستْ بها وحوشُ البرية، حنتْ لى السماءُ فكان المطرُ العارم وكان البرق والرعد، أحاول إقناع فتحى القبانى أن أبقى لكنَّه كان يخشى علىّ من البقاء.. "البقاءُ يعنى أن تموت، لن يرحمك أهلُ الونايسة البسطاء ما داموا اكتشفوا فعلتك، لن يرحمك أحد".
رحلتُ عن الونايسة مُرغمًا فى ليلة مطيرة.

هامش

لم يعرف بالمكيدةِ التى صنعتُها له، لا يعرفُ أننى وراء ما يجرى له الآن، غيرت كلَّ خططى من أجل فكرة الانتقام التى تسيطرُ على عقلى، هنا داخل الشقة لن أسمح له بتناول حبوب الترامادول أمامى مرةً أخرى، لن يتناول علبة بيرة واحدة، أعرفُ أن رأسه الآن يكادُ ينفجر، سيكون شرسًا، قليل الأدب، لن أسمح له بعد الآن أن يتلصصَ عليَّ وأنا نائمة فى قميص نومى الأزرق الشفاف.. أو أن يمدَ يده ليعبث فى دولابي الخاص، أخرجتنى موسيقى الرحبانى من سُباتى، وجدتُ اسمها "الغفلانة" على شاشة الموبايل، جاءنى صوتها متهللا:

- أمامنا ساعتان لنشرب القهوة وندخن الشيشة على الكافيه، ما رأيك؟

- أخشي أن نتأخر بعد الحظر.

- سيكون رائعًا.

- مجنونة.. رائع أن يُقبض علينا ونذهب إلى معسكر الشرطة العسكرية يا مجنونة.

- لا.. حين يعترض طريقنا ذئبان فى وقت الحظر ويرغبان أن يغتصبا فتاتين

تركبان سيارة هيونداى أكسيل رصاصي وترتديان الجينز.

علت ضحكاتى..

- سنستغيث بالأمن.. أو بالناس.

- لن يغيثنا أحد، الأمن منهك.. والنّاس متعبة فى المظاهرات النهارية، وليلاً فى الوقوف باللجان الشعبية أمام البيوت والشوارع.

- علينا إذن أن نكون مستعدتين لمعركة الذئبين بقمصان النوم الوردية

حتى تكتمل محاولة الاغتصاب، سأحضره معى فى الحقيبة، سأفضِّل أن يكون أحمر.

- هيا.. حتى لا نضيع الساعتين فى حديثك الأهبل، الرجال لا يفكرون الآن فى اغتصاب النساء، الرجال منشغلون عنا بالسير فى المظاهرات وهتافات إسقاط النظام.

- هذه الثورة جارت على حقوقنا، سنطالب أن يكون يوم للمظاهرات ويوم للنّساء.

- هيا يا مجنونة قبل أن يضيع الوقت، سننزل بالجينز، لا داعى لحركاتك، جيب قصيرة وبلوزات مكشوفة، نريد أن نتجول على راحتنا، لا نريد عيونا تراقبنا.

(3)

لماذا أحببت الونايسة يا جابر؟ من أجل بيوتها القصيرة وأزقّتها الضيقة، الفقرُ الذى يطاردنا فى كلِّ ناحيةٍ، يُدخلنا الشقوق كفئرانٍ جائعة، لا يسدُ رمقنا، يتركنا نلحسُ الأعتاب ونقفُ عند كل باب، يغشي وجوهنا الخجل، الفقيرُ لا قامة له، الفقيرُ يُولد محنيًّا، ينظرُ إلى أسفل ويمد يده للسيد صاحب المال. لماذا لم يخلق الله النَّاس أسيادًا؟

فى الونايسة عشتُ طفولتى بين الوادى والجبل العالى، الوادى حيث بيوت الفلاحين الفقيرة، بيوت من طينٍ تُشبه المقابر، تتراص كأنَّها رؤوس شياطين، نخشى أن تنهار سقوفها على رؤسنا ليلاً، بينما تقعُ فضلات الحيوانات والطيور فى أطباق طعامنا.. بل وفوق وجوهنا ونحن نائمين على المصاطب الطينية التى نتخذها كأسرّةٍ، تؤلمُ ظهورنا وتتركُ عقولنا نهبًا للشياطين، ونلقى داخلها الكوابيس التى تزعجنا رؤيتها طوال الليل، بعد أن يؤذن للمغرب من جامع الونايسة تختفى مظاهر الحياة، يلف الظلامُ كلَّ شيءٍ، تزحفُ العتمةُ إلى بيوت الونايسة وشوارعها الضيقة، تلمسُ العتمةُ روحى، تصرخُ بداخلى آهةٌ مكتومة حتى بزوغ الفجر، أنتفضُ فى فراشي حين أرى شيطانًا يهبط مترجّلاً من الجبل، يُنهضنى بقسوةٍ، يُعنفنى، يرغبُ فى حملى على ظهره ليليقنى فى الجبل حيث الزواحف تسكن بطنه الواسعة، أقومُ من نومى مفزوعًا، لم يكن هناك ما يسر نفسي سوى هديل الحمام الذى كانت تربيه أمى فوق السطح، ورثتْ أمى صفية حُب الحمام من جدتى الحاجة فاطمة، حين تتركه يطيرُ حرًّا طليقًا طوال النَّهار.. وعند الغروب يعودُ إلى بيتنا سعيدًا يرفرف، تفرحُ أمى صفية حين ترى سرب حمامها قادمًا فى سماء الونايسة من

بعيد. تصعدُ إلى سطح البيت حاملةً له الماء الذى أذابتْ فيه السكر. حين أسألها، تقول لى وهى تضمنى إلى صدرها.. "متى ذاق طعم هذا الماء الحلو، سيعودُ حتمًا إليه مهما غاب". أبي سعد الونايسي الذى يمتلك قراريط قليلةً من أرض الونايسة يقضي أيامه كلَّها فى العمل لدى الآخرين لقاءَ أجرٍ بسيط، فى أحد الأيام سمعته يزعقُ فى وجه أمى، يُريدنى أن أعمل فى جمع القطن كى أحصلَ على عشرين قرشًا فى اليوم، أمى تأبى، تخشي علىَّ من حرارة الشمس، تصرخُ فيه وترفضُ بحجة أن جابر لايزال صغيرًا على العمل لكنَّه أصر. هذا الأجر البسيط يُرضى أبي فأرى ملامح السعادة ترتسمُ على وجهه حين أقذفُ بتلك القروش فى حجره، كانت تنتظرنى وقت العودة كما تنتظرُ أسراب حمامها، تُقدم لى قطعةً من الجبن القديمة وإلى جوارها رغيف خبزٍ ناشف، أُجهز على الطعام، تتأملنى كما تتأمل سرب حمامها وهو يشرب ماءها الحلو. أمى صفية من أجمل نساء الونايسة، يُطلقون علىّ "ابن صفية"، فى البدايةِ لم أشعرْ بالخجلِ، ساعتها لم أعرف أنَّها ستهربُ ذات يوم من البيت وتتركتنى وحيدًا، من يومها وأنا أشعر بالخجل حين ينادوننى بهذا اللَّقب.. "ابن صفية". أقسمتُ أننى سأقذفُ من يُنادينى باسمها بحجرٍ فى وجهه، الأولادُ يخشون حجرى بعد أن أصاب رؤوسَ البعضِ منهم، لا يفعلها أحدهم إلا إذا أَمِنَ حجرى، عندها سيصرخ من بعيد.. "يا ابن صفية". سأجرى حينها خلفه قابضًا على حجرٍ فى يدى وأتوعده غدًا بينما يطلق ساقيه للريح هربًا. القصة سأعرفها لاحقًا حين أسمعُ النّسوة وهنَّ يهمسن بها ضحكًا وهن يداعبن شعري ويتغامزن، سأعرفُ ما يدور بينهنَّ الآن، سيرةُ أمى صفية التى لن تنتهى فى هذه البلدةِ الصغيرةِ، الونايسة لم تشهدْ قصة امرأةٍ فعلتْ ما فعلته صفية، تركتْ ابنها جابر وزوجها سعد

الونايسي وهربت مع سليم القفاص إلى القاهرة، كرهتُ المدينةَ التى سرقت أمى، قلتُ لأبي سأذهب إلى القاهرة لأعيدها، ضحك وسخر منِّى. لم أغفر لها فعلتها ولم أفهم بعد أنّها عاشت مرغمةً وهى تحب القفاص وتتزوج من سعد الونايسي، حين عاد العاشق وجد حبيبته صفية فى يد سعد الونايسي الفلاح الفقير، لم يستسلم، ظل يطارد عشيقته صفية كلما ذهبت تملأ جرتها من حنفية الحكومة شرق الونايسة، النسوة لاحظن رفضها وامتناعها عنه، كان ذلك فى بداية الأمر، ولأن القفاص ظلَّ على حاله شغوفًا بها، يجلسُ متخفّيًا أمام منزلها بالساعات الطويلة، يضع "العِمَّة" على رأسه، يتركها تنسدلُ على وجهه لتخفى ملامحه عن المارة، أهل الونايسة يعرفونه، مَن سيقفُ فى هذا الوقت أمام منزل سعد الونايسي سواه؟! القِس سمعان قال لأتباعه حين سمع ما فعلته صفية: "الذين هُم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله". نساء الونايسة لا يفعلن شيئًا يخرج عن الناموس، لا يفعلن سوى طاعة أزواجهن. يرددُ الشيخُ خليل إمام الجامع قوله: "النساء خُلقن للطاعة". أمى صفية كسرت قيدها وهربت، أنساها عشقُ سليم القفاص ابنها جابر الصغير الذى ينام فى حجرها فيرى الفراشات وهى تُقبِّل جفونه. لم يفلح أبى فى معرفة مكانها، كفَّ أخيرًا عن البحث عنها لكنَّه كلما رآنى تذكّر مصيبته، كان يتحاشانى، وجهى يذكِّره بأمى، قلتُ له: "لماذا لم تُذب لها سكرًا فى الماء كى تعود إليك صفية؟".

كرهت البيت الذى خلا من صفية.. أقضى يومى كلَّه خارج البيت، بعد عودتى من المدرسة يصحبنى فتحى القبّانى إلى الجبل، كان فتحى مولعًا بالجبل، يُعدّ المصيدة ونجلسُ قبالتها بالساعات، شغوف باصطياد الأرانب البرية، يحبُ اصطيادها ويجد متعته فى البقاء بالساعات أمام

المصيدة، كلما شعرت بطول الانتظار يدس كفه فى جيبه ويُعطينى حلوى القسّ سمعان الذى يذهب فى انتظاره يوم الأحد حين يعود القسُّ من البندر بعد أن يزور كنيسة العذراء، يعود وجيوبه مليئة بالحلوى، يُفرِّقها على أولاد الونايسة، فتحى يتعمّد أن يقفَ عند أول الشارع المؤدى إلى موقف سيارات الونايسة ليكون أول من يستقبل القس سمعان؛ ليمنحه حلوى كنيسة العذراء. فى يوم الجمعة الماضى جلسنا متجاورين على حصيرة جامع الونايسة نستمع إلى خطبة الشيخ خليل إمام الجامع، يتحدث عن خطورة جمع المال وكثرته، يروى لنا قصة قارون وكيف خسف الله تعالى به الأرض، كان فتحى متأثرًا بخطبة الشيخ خليل بينما كانت عيناى تدوران مع الرجل الذى حمل كيسًا وراح يمر على صفوف المصلين الجالسين يجمع منهم النّقود، كل منهم يعبث فى جيب سيَّالته ويدفع بها إلى الكيس، قبل أن ينهى الشيخ خليل خطبته كان كيس النقود قد امتلأ نصفه على الأقل. حين فرغنا من الصلاة وخرجنا سألت فتحى عمَّا يفعلونه بهذا المال قال:

- فى خدمة الجامع.. وفى خدمة الفقراء والمحتاجين أيضًا.

لم أنم ليلتها، صعدتُ إلى سطح البيت، أشاهد النّجوم فى سماءٍ ملبدةٍ بغيومٍ كثيرة. اختمرت فى رأسي الفكرة، تركتُ فتحى أمام مصيدة الأرانب فى الجبل، قلت له متعللاً.. "إننى ذاهب إلى أبى كى أطعم سرب الحمام، سأضع له الماء الحلو قبل أن تغيب الشمس كما كانت تفعل أمى". مضيتُ فى طريقى، فتحى لم يعلم أن سرب الحمام هجر البيت منذ رحيل أمى عنه، بدأ عدده فى التناقص وفى النِّهاية هجر البيت مثل أمى، كان يعود من أجل صفية.. فلما رحلت خلف عشيقها رحل حمامها معها، ربما رحل خلفها إلى البندر يبحثُ عنها مثلما فعل أبي

دون جدوى، يرحلُ ويعود حزينًا مكتئبًا، مضيتُ فى خطتى، وصلت إلى جامع الونايسة، المصلّون فرغوا من الصلاة الأخيرة، صلاة العشاء، مع آخر مُصلٍّ أطفأ الشيخ خليل الأنوار جميعها وأغلق باب المسجد ومضى إلى بيته حاملاً مسبحته الطويلة فى يده يرتلُ على عددها أوراده، ارتكزتُ على حجرٍ كبير بجوار حائط الجامع حتى وصلت إلى الشبّاك، تشبثتُ بعتبةِ الشُّبّاك.. دفعته بقبضةِ يدى دَفعةً قويةً، انفتح، دلفتُ بخفةٍ إلى داخل الجامع، ساعدنى جسدى النحيف على الولوج بسهولةٍ للداخل.. بحثتُ عنه، لم أجده، ظللتُ أبحثُ فى كلِّ مكانٍ كمجنونٍ حتى وجدته فى مكانه أسفل المنبر داخل المكتبة المتهالكة الصغيرة، لا يحتاجُ باب المكتبة الخرِب سوى دَفعةٍ بسيطةٍ بِظَهرِ كفِّى حتى ينفتح، حسرتى كانتْ كبيرةً حين رأيتُ كيس النقود مطويًّا.. أيقنتُ أنه فارغ، لصٌ خائب لم يجد غنيمته، عدتُ سريعًا إلى الجبل حتى لا يفتقدنى فتحى، جلستُ إلى جواره، مايزال كعادته ينتظرُ الفريسة دون مللٍ، لاح من بعيد أرنبٌ بري سمين، رأيناه يتجه صوب المصيدة، قطعة من الجزر حركت أمعائه الخاوية وأطاحت بعقله، جعلته يهذى سريعًا لا يفكرُ فى شيءٍ سوى التقاطها، لم يدر بخلد هذا الطامع ما سيقعُ له.. سكنَّا فى مواقعنا حتى لا نأتى بحركةٍ تثنى هذا الطامع عن مقصده وتجعله يتراجع، مكثنا متجمدين حتى سمعناه يصرخُ فى مصيدةِ فتحى، يتقافزُ من هولِ المفاجأة، لم أتمالك نفسي.. وجدتنى أسأله بتسرّعٍ:

- متى ينفقون تلك النقود التى يجمعونها فى الكيس؟

اندهش فتحى من سؤالى!! لم يُجب، شغفه بوقوع الفريسة فى المصيدة شغله عن أى شيء آخر، لم يلتفت إلى سؤالى المباغت، أدركت أن الوقت المناسب لفريستى سيكون ليلة الجمعة حيث يكون الكيس عامرًا ولم

يُنفق منه شيء.
ذهبتُ إلى عظيمة البقَّال، طلبتُ زجاجة كولا واشتريت حلوى، ودون أن أدرى طلبتُ عُلبة سجائر، اشتريت مطواة قرن غزال من سوق إطسا وملأت جيوبي بالحُمّص، أحب الحُمّص جدًا، تكررت زياراتى إلى إطسا.. المدينة الكبيرة، اشتريت من هناك جزمةً سوداء وحزام جلد بُنّى أصلي، عدتُ سريعًا. عند الغروب كان جالسًا كعادته فى حضن الجبل، ملأت كفِّى بالحُمّص ووضعته فى كفّه، ظللنا نأكلُ الحُمّصَ طوال الليل، ننتظر صراخ الفريسة، الأمر لم يستغرق منى سوى دقائق وأحصل على النقود التى تكفينى طوال الأسبوع حتى تحين الجمعة التالية، تعاملت بذكاء، لم أفعل كما يفعل الأرنب البري حين يدخل مصيدة فتحى، كنت آخذ نصف ما فى الكيس فقط حتى لا يفطن أحدٌ إلى عملية السطو ويفتضح الأمر، قلتُ فى نفسي "طالما هذه النقود لخدمةِ الفقراء، لم لا آخذ حقى بطريقتى، الله لن يغضب منّى لأننى فقير وأحتاجُ إلى تلك النقود، عندما أكبر سأعيدها إلى الشيخ خليل لينفقها على فقير غيري". أصبح يوم الجمعة من أسعد أيامى، أنتظره بشغفٍ، أحضر للصلاة مبكرًا، أجلس فى الصف الأخير لكى أتتبع الرجل جامع النقود وهو يحمل الكيس ويمر بين صفوف المصلين، وكلما رأيتُ اندفاع الأيدى إلى بطن الكيس وتدفُّق المال إليه وامتلائه أيقنت أن الرزق سيكون وفيرًا الليلة. مضتْ الأيام سعيدة، لم أحرم نفسي من شيءٍ، كلما أردتُ شيئًا اشتريته على الفور، ملابس، ساعة جديدة، أقلام حبر للمدرسة، شنطة غالية الثمن لا يحملها سوى ابن عمدة الونايسة فقط، أبي لم يسألنى عن شيء، كلُّ همّه ألا أطلب منه نقودًا. فى الأيام الأخيرة اعتكف فى البيت، يرفضُ مقابلة الأهل والأقارب، يتعللُ بالمرض وعدم القدرة على الخروج،

يقولُ لى إذا سألك أحدٌ عنى فقل "أبي مريض". قراريطه أهملها، أعرف أنَّه يتحاشي نظرات النَّاس حين يسألونه عن أمى صفية، لا يعرف عنها شيئًا ليجيب السائل، يهز رأسه ويمشي دون إجابةٍ. كلما ذهب أحد من أهل الونايسة ليقضي حاجةً له فى البندر يعودُ ليروي قصصًا عنها، قصص من تلفيق الراوى، سيروى لأهل الونايسه عن امرأةٍ رآها تُشبه صفية فى جمالها وجسدها الفارع البض، تركبُ سيارةً فارهةً، ترتدى ملابس مثل التى ترتديها نساء البندر، تضعُ أساور الذهب فى معصمها، حتى قال أحدهم "لو بقيت فى بيت سعد الونايسى لانطفأ وجهها المستدير كالقمر ونشف جلدها الطرى وانحنى عودها الفارع، صفية الآن ملكة من ملكات البندر، تأكل كما يأكلون وترتدى ملابسهم، أصبحت هانم، صفية ترفل الآن كملكةٍ متوجة، ستفتنُ رجال البندر كما فتنت رجال الونايسة، حظها العاثر أوقعها فى يد سعد الونايسي.. لا مال ولا جمال كما يقولون". أُنصت إلى حديثهم خلف الحوائط وفى ظل الأشجار كلما تحدثوا عن أمى يتسعُ صدرى بالسعادة، أنتشي، خرجت هذه المرأة من قيودها، حلقت كعصفورٍ طليقٍ بعيدًا عن الونايسة بفقرها وبيوتها الطينية القصيرة. كلَّ ليلةٍ فى نومى تحملنى من سريرى، تأخذنى فى حضنها، تنطلقُ بى إلى السيارة الفارهةِ التى وقفت أمام بيتنا فى انتظارها، تُدخلنى إلى المقعد الخلفى وتتركنى نائمًا، تنطلق بي حيث البندر.. الحياة الغنية، تطعمنى وتسقينى وتأخذنى إلى مدينة الملاهى الواسعة، نلعب معًا ونتمرجح سويًّا. تُلهبنى حرارةُ الشمس القاسية، أفيق لأرانى أجمعُ القطنَ تحت حرارةِ شمسٍ ملتهبة، أشعرُ بالحسرة، لماذا تركتنى فى فقر الونايسة ورحلت هى إلى الحياة الناعمة ؟! مثل كل اللصوص الأغبياء بدأ الطمع يتسربُ إلى نفسي، ازداد حُبي للمال

وكثُرت مطالبي، كلَّ مرةٍ كانت يدى تغترف أكثر وأكثر من بطن كيس النقود، فى آخر مرة تخليت عن حذرى، أفرغته كله فى جيبي دون أن أعي، لم أُبق سوى جنيهات قليلة، سيثير الأمر شكوك شيخ الجامع، لص مخادع يسرق كيس نقود جامع الونايسة، الشيخ خليل دعا عليه وهو واقف على المنبر يوم الجمعة الماضية، ظلَّ يدعو وقد رفع المصلون أيديهم وهم يرددون "آمين". مثل بقية المصلين رفعت يدى، أردد خلف دعاء الشيخ على اللص، كلص خائب لم أكف عن محاولاتى حتى أتانى فتحى القبّانى ذات صباح على ظهر دراجته النارية، يصرخ خلفى، طلب منى أن أترك الونايسة فى الحال، تعجبت!! نظر إلى علامات الدهشة التى ارتسمت على وجهى ولكزنى فى كتفى كى أفيق، لا وقت، افتضح أمرى، عرف الجميع ذلك اللص الذى سرق نقود الجامع، وضعنى خلفه على الدراجة النّارية وانطلق إلى موقف سيارات الأجرة، كنت صامتًا، لم أدافع عن نفسي، لم أنكر التهمة، حملنى إلى موقف سيارات الأجرة، كان منادى السيارت يعلو صوته ينادى على الركاب إلى القاهرة، حين سألته ماذا أفعل هناك فى المدينة التى سرقت أمى؟ لا أعرف أحدًا هناك، أخرج ورقةً صغيرةً من جيبه، طلب منِّى أن أذهب إلى العنوان الموجود بها لأقابل شخصًا يُدعى "سعيد الحلاق"، يسكن فى منطقة شعبية اسمها "بولاق الدكرور"، محله فى شارع "عشرة" بجوار الكوبري الخشب.

ركبتُ السيارة.. وقبل أن تنطلق بي همستُ فى أذنه: كيف عرفونى يا فتحى.. من دلهم علىّ؟ كانت خطتى مُحكمةً.. لم أكن لصًّا غبيًّا.

قال فى سخريةٍ: الحُمّص الذى سقط من جيبك وملأ حصير الجامع أيها اللص الخائب.

(4)

ألقانى مثل حشرةٍ فى حجرةٍ صغيرةٍ فى بدروم منزل رجب العجلاتى، سرير حديد بعرض متر، مرتبة محشوّة ببقايا قطع القماش البالية، كرسي حمَّام خشب صغير، بستلة ماء ألمنيوم، كوب صاج بلا يد يعلوه صدأ، السواد يُغطى الطلاء الباهت لسقف الحجرة، الحوائط متشققة وترتسم عليها شروخٌ على هيئة خيوطٍ متداخلة، تُشكّل رأس شيطانٍ مخيف، لمبة كهرباء مدلاة بسلك من منتصف السقف، شباك صغير بأعلى الحائط المواجه للشارع العمومى، تنتصب عيدان الحديد فى منتصفه، وضلفة شباك خشبي متهالكة بالكاد تمنعُ أتربة الشّارع من السقوط داخل البدروم، الرطوبةُ نزعت الطلاء القديم من النصف السفلى للحوائط. منزل رجب العجلاتى يقع بالقرب من الكوبرى الخشب فى بولاق، يعرج قليلاً بقدمه اليمنى، يدير محلاً لتأجير وتصليح الدراجات، عطية وعدنى أن يبحث لى عن عمل، لم يكن وجه عطية منصور مألوفًا لى، ملامحه حادة، رجل لا يبتسم أبدًا بل يقهقه بصوت كشكمان سيارة عندما يطوح بالزهر من يده فيقع الدش، يقضى الساعات في لعب الطاولة على قهوة شعبان، المكان الذى ألتقيه فيه، يلعبُ ويكسبُ نظرائه وهم دائمو الشكوى من قدرته على "قرص" الزهر؛ فما يطلبه من الزهر يجده.. "شيش يك"، يصرخ.. "دش"، يصيح "جهار دو". يتعجبون.. ويقهقه هو كشكمان سيارة، عندما يخسر يسدد لى نظرةً آمرة، أقومُ بعدها بهمّةٍ لأدفع حساب المشروبات فى صمت، كأنَّها إتاوة مفروضة علىّ وإلا سأتعرض لسيلٍ من الشتائم البذيئة الوقحة التى تخرجُ من فمه المعبأ كبرطمان مخلل بأنواع البذاءات والألفاظ الخادشة للحياء،

ثم يتبعُ سيل شتائمه بتذكيري أننى لولاه لكنتُ الآن مثل كلاب الحوارى ليس لى مأوى، اعتدتُ على طريقته عندما يُطلقُ فى وجهى شخيرًا عاليًا وسط القهوة وأمام زبائنها، ثم سيلاً من الشتائم المتتالية وبعدها يهجمُ على كدُبّ يُريد ضربي، أهرب بين كراسى القهوة حتى أحتمى بأحدهم، يظل الزبون الشهم يرجوه أن يسامحنى، هذه المرة لن أعترض إن طلب منّى شيئًا مهما كان، سرتُ خلفه كطفلٍ يسيرُ خلف أمه فى الزحام، كل ما يحرصُ عليه هو أن يقبض على كفها بأصابعه الصغيرة خوفًا من أن تفلت يده ويتوه فى زحامٍ لا نهاية له. أذكرُ حين قابلته أول مرةٍ، كنتُ أسأله عن مكان سعيد الحلاق الذى أرسلنى إليه فتحى القبّانى، ضحك ووضع قدمًا على أخرى، تركنى واقفًا أمامه فى خجلٍ ريفي، مقابلة صادمة، أخذ يسبُّ ويلعنُ الريف الذى يُلقى بفضلاته إلى القاهرة، هؤلاء السذج الحمقى الذين يحلمون بحياةٍ أفضل هنا، القاهرة لا تطيق سكانها ولا تطيق أبناءها، لا يجد أبناء الريف البسطاء موضع قدم، سيعيشون حياتهم غرباء حول القاهرة فى عشوائيات مثل التى أتوا منها، يصرخُ كشكمان سيارة "إنهم يفسدون حياتنا". لا أعرف سر ضيقه بالوافدين إلى القاهرة، أخيرًا بعد أن سحب نفسًا عميقًا من الشيشة وأطلق الدخان فى وجهى، أخبرنى بأعصاب هادئةٍ أن سعيد الحلاق مات منذ سنوات. أُسقط فى يدى، دارت رأسي، كدت أقع على الأرض بعد أن فقدت توازنى، حملنى إلى داخل القهوة وأغرق وجهى بالماء.. حتى أفيق من الإغماءة. لديه حق.. لولاه لعدتُ مهزومًا إلى الونايسة، والونايسة لن ترحب بي، سيستقبلوننى كما يستقبلون اللصوص باتهامٍ جاهز ومحاكمة صورية تنتهى بالإدانة، سيجرى خلفى صبية الونايسة وهم يقذفوننى بالحجارة، مشهدٌ يتكررُ فى أحلامى

فأقوم مفزوعًا، لن أعود لتلك البلدة مهما حدث، النّاس فى الونايسة يسيرون كسلاحف بينما فى القاهرة يتقافزون مثل أرانب برّية، عملتُ فى دكان رجب العجلاتى، تعلمتُ كيف أقود الدراجة بمهارة، كيف أقومُ بإصلاحها، مهنةٌ لا تُدرّ دخلاً وفيرًا، مجرد قروش قليلة بالكاد تكفي نفقاتى هنا فى بولاق ولا تسد الرمق، أوعز لى الشيطانُ ذات يومٍ أن أستغلَ خلافات رجب مع زوجتيه، فى أيام مشاحناته كان ينشغل ولا يحضر إلى الدكان لمتابعةِ سير العمل، أختلس أثناء غيابه من عائد إيجار الدراجات، سأذهب إلى دكان حمدى لأشترى ساندوتش مخ أو كبدة بلدى؛ تعرّفتُ عليهما حين طلب منى الأسطى أن أجلب بعض الطلبات من السوق وأحملها إلى شقة إحداهن، عرفتُ السمينة ذات الكرش الكبير، بيضاء ناصعة، ذات مؤخرة كبيرة الحجم مليئة بالدهون.. متهدلة قبيحة، والزوجة الأخرى نحيفة خمرية، تصغر الأخرى سِنًّا، بهية رائقة الملامح، طويلة ممشوقة ذات مؤخرةٍ صغيرةٍ ملفوفةٍ ناعمةٍ بارزةٍ ومشدودة، دعتنى المرأة السمينة مرةً لوليمةٍ عامرةٍ على طبليتها لكى أحكى لها عمَّا يفعله الأسطى رجب مع النحيفة، فهمتُ ووجدتها فرصةً لا تُعوَّض، جاءت فى الوقت المناسب، قررتُ ألا أدع تلك الفرصة تفوت، قمت بتأجيج مشاعرها تجاه الأسطى رجب، اصطنعت الحكايات من خيالى حتى أوقع بالأسطى، سأحكى لها عن اهتمامه المتزايد بالأخرى، وكيف يجلب لها البرفانات الغالية ويشترى لها الهدايا والملابس. ينشغلُ الأسطى عن المحل أيامًا فى إصلاح ما أفسدته دون أن يدرى عن فعلتى شيئًا. بقى الأمر سرًّا، رحت ذهابًا وإيابًا على زوجتيه، كل منهما تُمعن فى إرضائي ببذخٍ من أجل أن أحكى لها ما يفعله زوجها الأسطى مع الأخرى، حتى جاء اليوم الملعون، كنت جالسًا أمام وليمةٍ عامرةٍ على

طبلية زوجته النحيفة، أحكى لها عمَّا يفعله مع البدينة، الملعونة أعدَّت لى كمينًا، أخبرت الأسطى رجب بموعدى، كان فى انتظارى جالسًا فى حجرة النوم دون أن أدرى، وقد استويت أمام الطبلية العامرة بصنوف الطعام الشهى التى اعتدتُ أكله من يديها، شمّرتُ أكمامى لأجهز على الوليمة وبعدها سأنسجُ للنحيفة قصةً من خيالى عن أفعال الأسطى رجب لأثير مشاعرها كالعادة مستغلاً غيرتها على زوجها، حيلة أصبحت متكررةً ومعتادةً أتقنتها بمهارةٍ طالما تُدرّ علىّ بعض الجنيهات وطعامًا شهيًّا، وطريقة سهلة للانتقام من الأسطى البخيل ومن فمه الذى يقطر بأحط الشتائم. لكن هذه المرة ما إن هممت بمد يدى إلى الصينية العامرة بأشهى الطعام حتى وجدته أمامى ممسكًا بالمفك وبيده الأخرى كاوتش دراجة، قفزتُ من مكانى ذعرًا عدة أمتار فى الهواء مهرولاً ناحية الباب، قفز خلفى حتى إننى تخيلتُ من خفة حركته أنه يصطنع العرج، كلما لحق بي أسمعُ طرقعة الكاوتش على ظهرى، وتارةً ينقرنى بالمفك فى كتفى إن اقترب منى أكثر، حتى امتلأ جسدى بالجروح التى أحدثها المفك ولسعات الكاوتش، الزبائن على قهوة شعبان يتقافزون من الضحك وهم يشاهدون صراخى، وكيف صار رجب الذى يعرج بقدمه اليمنى مثل "الرهوان" يجرى خلفى، أصرخُ من لسعات الكاوتش التى تهبطُ على جسدى ومن وخز المفك فى لحمى، تأكدتُ ساعتها مثلما ظنَّ الجميع أن رجب العجلاتى يدَّعى العرَجَ حتى يهرب من التجنيد الإجبارى. قام الأسطى رجب بطردى من الدكان.. بل ومن الحجرة التى استأجرتها فى بدروم بيته، لم أشعر بالحزن.. ولا بالغضب، أصبحت فجأةً عاطلاً، احتلتُ على الحياة فى القاهرة المزدحمة بالضجيج والنَّاس، لا شيء أفعله حين أشعر بالجوع

سوى أن أمر على صناديق القمامة مثلى مثل كثيرين لا يجدون المأوى أو الطعام، نمد أيدينا وننبش فى بطن الصناديق، نلتقط بقايا أطعمةٍ ألقاها مارَّة، لم أشعر بالضيق، أرانى ضحية لإرادة أقوى منِّى، تدفعنى إلى مجهولٍ لا أعلمه، أُساق إليه مرغمًا، ليس بإرادتنا نسيرُ، ستكون هناك غاية لا نعلمها تتحكمُ فى مصائرنا ولا فكاك من التحرك صوبها مرغمين أو طائعين، سنبلغها شئنا أم أبينا، هكذا هى الحياة تُعطينا ما تُريده فقط.. لا ما نريده.

أتانى عطية منصور.. لكزنى بمقدمةِ حذائه، كنتُ نائمًا فى ركن قصي بجنينة الأورمان مثلى مثل كثيرين، ضنَّت عليهم القاهرة بحجرةٍ صغيرةٍ ناشعةٍ بالرطوبة فى بدروم تحت الأرض، تركتنا ننام فى العراء كقطط برية بلا سقف وبلا حوائط، لحيتى طويلة، شعرى مجعد منكوش وعينانى حمراوتان من قلة النوم، كان الملعون ينتظرُ أن تفعلَ بي القاهرةُ ما فعلته حتى أسير خلفه طائعًا أو مرغمًا.. لا فرق، حيث لافتة الطريق تُشير إلى أنَّه اتجاه إجبارى ولا يوجد دوران للخلف، لا أعرف الفرق بين الاثنين، ربما كان الفرق دقيقًا حتى إنّه لا يُرى، سنبرر لأنفسنا حتى نتقبَّل ما هو مفروض، سنبتلعُ مرارة اللحظة القاسية ونلعقُ أصابعنا ونحن نشاهدُ هزائمنا المتتالية، سرت خلفه، قهقهته التى تُشبه شكمان السيارة تتوالى وهو يسخر من هيئتى كشحاذٍ، أخذنى من يدى إلى أحد المساجد وأدخلنى الميضة حيث الحمَّامات، أخذتُ حمّامًا وارتديتُ الملابس التي أحضرها لي معه، اصطحبنى إلى شارع فيصل، أجلسنى أمامه فى محل "المنوفي"، طلب لى نص كباب وكفتة، أكلتُ حتى امتلأت معدتى واصطحبنى معه إلى شقته سهرنا نحتسي زجاجات البيرة وندخن الحشيش ونبلعُ أقراص الترامادول. سرتُ خلفه سنوات، أمر على زبائنه

كما علَّمنى، أُسلِّمهم وأعود بالنقود، عمل بسيط وسهل، يدر علىّ مالاً بالكاد يسد الرمق، لكنَّه أغنانى عن مد يدى للعبث بصناديق القمامة بحثًا عن بقايا سندوتشات المارة، عشتُ أيامًا سوداء بعدما فقدت عملى عند الأسطى رجب العجلاتى، كنت أنفق كل ما يقع فى جيبي. يا لها من أيام حين نمت فيها فى الخرائب وأكلت من صناديف القمامة، وبقيت ليومين دون طعامٍ بعد أن اعتدت تسلُّق سور جنينة الأورمان لأنام فيها ليلاً، هناك تحت ظلام دامس ستلعق لحمك الجرذان، وستخرج قطعان متوحشة ليلاً تبحثُ عن فرائسها بين الأشجار الكثيفة، تسمعُ صيحات وأنات وأوجاع الغرباء، ستحاولُ اليوم أو غدًا حين يأتى دورك أن تنتهك جسدك لقاء حقنة ماكس أو شريط ترامادول، سترغم على التخلى عنه لينهشه شواذ الليل بلقمة خبزٍ أو شريحة جبنة رومى قديمة. بوسعى الآن أن أقف أمام محل نعمة وأطلب السندوتشات ومعها المخلل والطحينة، وفى بعض الأحيان أدخل كنتاكى لأطلب قطعتين ومعهما الكاتشب وأجلس لألتهم الوجبة إلى جوار بقية الزبائن المحترمين، كنت أتطلع إلى زبائن كنتاكى من خلف الزجاج الفاميه وعيناى تترصد ما يأكلونه بشَرهٍ، أحسد الأطفال الذين يجلسون إلى جوار آبائهم فى وداعةٍ بينما أبقى منتظرًا عند صناديق القمامة حين يُلقى أحدهم من شباك سيارته كيسًا منتفخًا، أُسرع خلف الكيس متلهفًا، مرةً أجد بقايا ساندوتشات فول وطعمية، ومرةً أجد بقايا ساندوتشات هامبرجر، ومرات أجدُ بقايا قطع فراخ كنتاكى، من كثرة خبرتى أعرف من ماركة السيارة ونوعها نوع المأكولات التى ستُلقى من نافذتها، تخمينى يصيب فى أغلب المرات، الحياةُ تبدو مثل ذلك الكيس المنتفخ الذى يُلقى من شُبَاك إحدى السيارات المسرعة، مرةً تمنحنا أيامًا رديئةً بطعم المرارة

والألم، ومرةً تمنحنا سعادةً ومرحًا، عليك فى كل الأحوال أن تتلقف ما يُلقى إليك، لا حيلة لك سوى أن تمد يديك مرغمًا مثلما أفعل وتأخذُ ما تُلقيه إليك راضيًا مزعنًا دون أن تتأفف أو تبدو معترضًا. حين قابلتُ عطية منصور فى جنينة الأورمان طلب منى أن أسير خلفه، كما سرتُ خلفه حين أخذنى من يدى وراح يمر بي على منازل كثيرة حتى وصل إلى منزل الأسطى رجب العجلاتى، طلب منِّى خمسة جنيهات، أعطيتها له، أخذها ونزل بي إلى البدروم، أدخلنى حجرةً صغيرةً مليئةً بالرطوبة بها كراكيب قليلة، أفهمنى أننى سأبقى هنا بعض الوقت حتى يجد لى عملاً. يُسمينى لاجئًا ويعتبر الوافدين إلى القاهرة مجرد لاجئين ليس لهم حقوق أصحاب المدينة الأصليين. واليوم أشار لى كى أتبعه بعد أن أخبرنى أنه وجد لى عملاً آخر سيدر علىَّ دخلاً معقولاً، وحين تعجَّبت من تصرفه قال بتأفف:

- تجارتنا لم تعد مجدية، البلد كلها بعد الفراغ الأمنى أصبحوا تجار للصنف.. حتى الترامادول صار مغشوشًا، سأترك هذه التجارة، لدى عرض مع جماعةٍ سأعمل معهم، لا أريدك أن تعود للضياع.

سار بي حتى الدقى.. وصلنا شارع المساحة، فرق شاسع بين عمارات الدقى وسكانها وبين بيوت بولاق وبين قباب الونايسة الترابية المعروشة بفلق النّخيل وأعواد البوص. أوقفنى عطية عند إحدى العمارات:

- هنا.. ما رأيك؟ المكان مستواه عالى ونظيف.

صعد بي حتى الطابق الثامن، أدخلنى عيادة طبيب مكتوب على اللافتة "دكتور صلاح رمزى- أخصائي الباطنة وأمراض الكبد". دخلتُ خلفه، صالة واسعة، فى المقدمة تجلسُ سيدة متوسطة العمر خلف مكتب صغير، ترتدى بالطو أبيض.. فهمت أنّها الممرضة، همس عطية فى أذن

الممرضة التى عرفت أن اسمها سعاد، ألقت نظرةً على هيئتى كأنّها تتفحّصُ بضاعةً جديدةً وقالت له بحذر:

- المهم أن يفهم عمله وينفذ ما يطلبه منه الدكتور.

- هذه المرة تمام، جابر مستعد لكل شيء.

- الظاهر من ملامحه أنّه ساذج، أول مرة يأتى إلى القاهرة.

- لكنّه نشيط ويحب العمل.

- أدخل.. انتظر الدكتور حتى يأتى.

أى مسرحيةٍ عبثيةٍ يكتبها"بيكيت" الآن؟ يُدخلنى عيادة طبيب باطنى فى عمارة عالية بالدقى، هل سينتهى بي الحال فى القاهرة لأعمل تمرجى أو على الأكثر ممرض أو ربما فراش فى العيادة، أُعد القهوة والشاى وأُنظف العيادة؟ لا أدرى ما يفعل بي.

هامش

ما الذى أوصلنى إلى تلك الحالة؟ نوم طوال النّهار، جسدى مرهق ولا أستطيع القيام بأى نشاطٍ داخل الشقة، حجرة نومى مليئة بأعقاب السجائر وعلب البيرة المفتوحة وكراتين البيتزا الفارغة التى طلبتها دليفري، ومناديل ورقية مُلقاة، الغرفةُ تحوّلت إلى صندوق قمامةٍ كبير. أسابيع مرَّت دون أن أنزل من الشقة، أقضي معظم الوقت فى الثرثرة مع مروة عبر الهاتف وسماع نكاتها البذيئة، حتى نكاتها صارت مكرورةً، أضحك زهقًا، أدفعُ الملل والكآبة بأى شيء، أستمع إلى حكاياتها مع شريف بهجت، عادت تحكي حكايات معادة عن شريف بهجت مرةً بعد مرةٍ، وأنا لا حيلة لى غير الاستماع إليها لنقتل الملل سويًّا. متى تعود القاهرة كما كانت؟ تركت نفسي لصاحبتى مروة عزيز الفتاة النحيلة ذات البشرة الخمرية، تحاولُ أن تجرَّنى إلى عالمها، تؤمنُ بأفكار تقدُّمية لا يتحملها مجتمعنا الشرقي، عانتْ من أفكارها طويلاً حتى تخلصت من كل عقد الفتيات، تركت أسرتها بالإسكندرية وسكنت القاهرة، تبحث عن حلمها، تعيشُ الحياة على راحتها، صنعتْ لنفسها عالمها الخاص وقيمها، حاولتْ أن تكون كاتبةً مثلى وفشلت، وصحفيةً وفشلت، وأخيرًا استثمرت جمالها واكتفت بوظيفةٍ فى شركة سياحة، على علاقة بابن صاحب الشركة شريف بهجت، يُغدقُ عليها أحيانًا من وراء أبيه الذى عرف بتلك العلاقة لكنَّه رفضها وحذَّر مروة من الاستمرار مع ابنه، لكنَّ مروة لا تأبه لتحذيراته وتقولُ عنه: "رجل جعجاع طبقي، يعيشُ فى زمنٍ مضى وانتهى، مايزال يقصُ شاربه على طريقة البشاوات، لن أبالى بميت". أُشفق عليها حينًا وأحسدها حينًا آخر لجرأتها عندما

تقفُ فى وجه مجتمعٍ لا يتعامل مع المرأةَ كإنسان ويريدها مجرد متاع، نتقابل دائمًا على "كافيه زمان" بشارع البحر الأحمر، نثرثر ونضحك وندخن الشيشة وتُلقى على سمعى آخر النكات، نضحك كثيرًا ونغادر بعد احتساء النسكافيه، أحيانًا ننزل وسط البلد، نلف على الفاترينات لنشاهد الموديلات الجديدة، نتسلّى ونضحك ونُعلِّق على الفساتين، والجينز وألوان الأندر الداخلى وقمصان النوم، تثرثر كثيرًا مع الباعة حول الثمن والمقاسات والألوان. هى التى علّمتنى تدخين السجائر بعد الثورة، لنقتل الوقت كنا نتحدث عبر الهاتف بالساعات الطويلة أيام الحظر، اقترحت علىّ التدخين لاستهلاك الوقت الممل البطىء، استهجنتُ الفكرة، أرى أنه لا بديل عن متعة الشيشة ونفث دخانها فى الهواء بعد سحب نفس عميق.. ثم أُفرج عن دخانها شيئًا فشيئًا، بطيئًا يخرج من فمى على دفعات. لم تكن الشوارع آمنة، السجناءُ الذين هربوا من السجون وسكنوا عزبة الهجانة بالقرب من القاهرة شكلوا تهديدًا، كلما سمعنا عن الخطف فى الشوارع والتثبيت وسرقة السيارت من أصحابها جلسنا فى الشقق ننتظر طويلاً حتى تعود الحياة لطبيعتها، لكن الأمر يزداد سوءًا والخوف يتفاقم وطلقات الرصاص صارت أمرًا عاديًّا تسمعه فى أى مكانٍ وفى أى وقتٍ. مستحيل أن تستمر الحياة على هذا النحو.. استسلمتُ لفكرة مروة وبدأت أدخن السجائر، فى البداية كانت مهمةً شاقة وأتخلص منها سريعًا قبل نهاية السيجارة، عند منتصفها أو ربعها الأخير تقريبًا، أُلقيها وأدوسها بقدمى بعنف، شيئًا فشيئًا بدأتُ التعوّد عليها وبدأت رفقتى بها تتحوّلُ إلى ونس، صارت السيجارة ونسي فى وحدتى، كلما انتابنى القلق ليلاً أسحبُ واحدةً وأشعلها، أخذت وقتًا كى أتذوق طعم تبغ السيجارة وألمسه بطرف

لسانى. كل ما كنت أحلم به وقتها أن يعود الهدوء حتى أحمل مروة معى فى الهيونداى إلى كافية زمان وندخن الشيشة، سيكون ذلك أسعد يوم فى حياتى. فى الآونة الأخيرة بدأت مروة تُرسل لى عبر رسائل الخاص أفلامًا إباحية، تعجّبتُ، لم أصدق، ما الذى جرى لها ؟ وعندما نهرتها، قالت: "لا شيء، نُضيِّع وقتنا بدلاً من أن نعيش حياةً سخيفةً، نطالع فيها شاشات التليفزيون التى تنقل استغاثات النَّاس من قُطاع الطرق، هذه الأفلام تُريح الأعصاب، تشاهدينها وأنتِ تمسكين بالسيجارة وإلى جوارك فنجان النسكافيه، ستغيبين عن العالم لدقائق". اختتمت كلامها بقهقهةٍ عاليةٍ وألقت بعض النكات وأغلقنا الهاتف. ظللت على موقفى، لم أقتنع بمبرراتها، قلتُ لن أفتح تلك الرسائل حتى فوجئتُ برسالةٍ منها على الخاص تقول: "فيلم نااار يا أسيل، البنت ذات المؤخرة المدهشة التى تشبه مؤخرتك تمامًا، شاهديها وستعرفين أننى على حق". نهضتُ إلى اللاب توب وقمت بتنزيل الفيلم، ترددتُ قليلاً، أشعلت سيجارةً تلو الأخرى، مكثتُ حائرةً بعض الوقت، تحركت أصابعى نحو اللاب، فتحتُ الفيلم أخيرًا، تتغلّبُ الغرائز أحيانًا على عقولنا، تتحرك هى صوب هدفها بينما العقول مشغولةً فى تفاصيل الواقع السخيف. كنت أُريد أن أعرف ما الذى يُدهش "بسيط" فى مؤخرتى؟ مع مرور الأيام صرتُ مدمنةً كالمجنونة مروة عزيز، كلّ ليلةٍ أُعد لنفسي طقوسًا خاصة للفُرجة، أضع اللاب فى غرفة النَّوم على السرير وأضع مخدتين خلف رأسي ثم أُطفئ أنوار الحجرة وأكتفى بإضاءة شاشة اللاب، إلى جوارى علبة السجائر وفنجان نسكافيه ساخن، أشعل السيجارة أولاً ثم آخذ رشفةً من الفنجان وأضغط بعدها على باور التشغيل. يمر الوقت سريعًا دون أن أشعر به، لم أعد أُتابع أخبار المظاهرات ولا الاعتصامات ولا

أنباء التفجيرات التى كانت تتوالى علينا طوال النّهار. بعد أن أنتهى من طقوس الفُرجة أُهاتف مروة، نظل نتحدثُ عن الفتاة بطلة الفيلم ذات المؤخرة التى قالت مروة إنّها تُشبه مؤخرتى، وقال عنها بسيط إنّها تُشبه قُبةً سماويةً مدهشةً ناعمةً وطرية، تُشبه بالونًا مُمتلئًا بريش نعام، أو قال ممتلئًا بالماء فى آخر لقاء بيننا. نثرثر فى الهاتف حول الميك آب الذى وضعته البطلة، قمصان نومها، يلفت انتباهنا أنها ترتدى الجينز مثلنا فى بداية الفيلم، نتحول للحديث عن انفعالاتها، وقدرتها على التأثير فى المشاهد.

كنّا على المحور، انتهت الثرثرة النسائية، طلبت منِّى مروة أن أركن السيارة على جانب الطريق لتُرينى شيئًا مُدهشًا، انصعتُ لها بعد إلحاح، المجنونة تعلّقت بيدى الممسكة بعجلة القيادة، كدنا نصطدم بالمارِّين إلى جوارنا، هدَّأت السرعة ومِلتُ بالسيارة إلى يمين الطريق وركنت، أطفأتُ الموتور بينما أبقيتُ نور الصالون.. أشعلتْ هاتفها ومدّتْ يدها لى وقالت:

- فيلم مدهش أرسله لى شريف بهجت اليوم على الخاص، سوف لا تصدقين ما تشاهدينه، البطلة تُشبه إيما ستون.. تُشبهك.

مكثنا على المحور نصف ساعة، نُدخن وعيوننا على شاشة الموبيل الصغيرة، كانت امرأة تُشبه إيما ستون.. تُشبهنى.. هى التى ترقد فى الفيلم، صرختُ حين رأيتها بينما ضحكت مروة عزيز وهى تقول لى:

- أين التشكيلى ليري ماذا يفعلُ الرجال؟

ضحكنا وأدرتُ محرك السيارة وسرتُ بهدوءٍ.. وأنا لا أعرف إلى أين أتجه الآن.

(5)

دخلنا غرفة الكشف، انتظرنا حتى أتى الدكتور صلاح رمزى، شاب وسيم رشيق مهندم يرتدى بدلةً سوداء أنيقةً ورابطةَ عنقٍ زرقاء بها خطوط رمادية، دخلتْ خلفه الممرضةُ سعاد، خلع الجاكيت، التقطته سعاد من يده وحملته إلى الشمّاعة الخشبية الواقفة على يمين الغرفة، نظر ناحية عطية ورمقنى بنظرةٍ عابرة:

- هل هذا هو قريبك يا عطية؟

- نعم يا دكتور.

- تمام.. وهل سيفهم الشغلانة؟

- ولد طيب من اللاجئين.

ضحك الدكتور رمزى، ضحكنا جميعًا، هذه المرة نظر ناحيتى يتفحَّصنى جيدًا كأنَّه يتفحَّصُ بضاعةً أو عبدًا سيشتريه من سوق نِخاسةٍ.. كما فعلت من قبله الممرضة سعاد، لم أفهم.

- لكن ملامحه كالقاهريين.. ما اسمك؟

- جابر الونايسي.

أومأ إلى سعاد فأشارتْ إلىّ، خرجتُ خلفها من سوق الرقيق.

قال بلهجةٍ ممازحًا:

- ستشرح لك سعاد المطلوب منك.

سرتُ خلف الممرضة حتى أدخلتنى غرفةً أخرى بها سرير واحد ودولاب، أخذتْ تشرحُ لى مهمتى الجديدة فى العيادة وفتحتْ الدولاب، وجدتُ ملابس مختلفة الأنواع والأشكال، لم أتمالك نفسي من الضحك،

ظللتُ أضحك وسعاد تحاولُ إيقافى بأية طريقةٍ حتى لا يشعر الدكتور فيطردنى على الفور، ولما لم تستطع إيقافى عن الضحك صارت تضحكُ معى، دخلنا سويًّا فى كريزة ضحك، قالتْ لى يومها: "سينتهى الأمر بطردى أنا وأنت من العيادة، سنجلس لنتسول أمام أحد المساجد". ضحكنا ثانيةً، منذ هبطتُ أرض المحروسة لم أضحك كتلك الليلة، لم أصدق أن تلك هى الوظيفة الجديدة التى سأتقاضى عنها أجرًا، كان المطلوبُ منِّى ببساطةٍ كما شرحت لى سعاد.. أن أقوم بدور الممثل، أجلسُ فى المساء بين المرضى من زبائن العيادة، لا يجبُ أن يعرف أحدٌ منهم أننى أعمل فى العيادة، بل أجلسُ بينهم على أننى مريض مثلهم تمامًا، أظلُّ أحكى لهم عن مهارة الدكتور صلاح رمزى، سأدخلُ متقمصًا دور المريض، وحين أقترب من سعاد.. أزعق بصوتٍ عالٍ:

- الدكتور رمزى موجود من فضلك؟

تردُ سعاد كأنّها لا تعرفنى:

- نعم يا أستاذ، هل تريد أن أحجز لك؟

أردُّ بطريقةِ أداءٍ استعراضيةٍ كأنّنى واقفٌ فى ميدانٍ:

- لا.. أنا الحمد لله شُفيت، هذا الدكتور ليس طبيبًا.. إنه ساحر.

ثم أرفعُ عقيرتى بالدعاء والثناء على الدكتور رمزى، يجبُ أن أقولها بأداء استعراضي يُشبه آداء يوسف بك وهبي على المسرح.. بحيث يتنبه جميع المرضى:

- نعم هذا طبيب عالمى، فقد ذهبت قبله إلى عشرات الأطباء ولم أتحسّن، كنتُ قعيد الفراش لا أتحرك.. وها أنا كما ترونى.

سيصيحُ المرضى وهم يروننى فى كامل صحتى.. أردُّ مطمئنًا الجميع:

- الحمد لله.. إن شاء الله يكون شفاؤكم على يديه، أنا جئت لأشكره

وأُقبّل قدميه.

وهنا تأتى اللحظة المهمة، حين يدخل الدكتور رمزى من باب العيادة وألمحه، أرتمى فى حضنه وأنا أكرر عبارات الشكر، أُقبّل يده التى ينزعها من يدى، ثم أهبطُ على قدميه لأقبّلهما. هكذا يثقُ جميعُ المرضى فى قدرة الدكتور صلاح رمزى على العلاج ويذيعُ صيته كطبيبٍ ماهرٍ، وتمتلئ العيادة بالزبائن المرضى، لعبةٌ بسيطةٌ تُدرُّ دخلا كبيرًا، مرضى وزبائن يتوافدون بالمئات، لن يكون آدائي ثابتًا؛ بل فى كلِّ مرةٍ سأدخلُ بملابس مختلفةٍ، مرةً بملابس الفلاح البسيط، ومرةً سأرتدى بدلةً ورابطةَ عنقٍ، ومرةً بملابس عامل، ومرةً بملابس حِرفى، كلَّ مرةٍ أتقمصُ دورًا مختلفًا. سعاد الممرضة يبهرها آدائي التمثيلى، تُشبِّهنى بأحد نجوم السينما المشهورين، قالت لى مرَّة إننى أُشبه نجيب الريحانى، وفى أحيان أخرى تقول إننى أشبه شكرى سرحان فى فيلم "شباب امرأة"، حيث الريفي البسيط يجيء إلى القاهرة. أظنها حلمت يومها أن تقوم بدور تحية كاريوكا. بسبب ثناء سعاد كان الدكتور رمزى يُغدقُ علىَّ بالمال الوفير، أحضرتْ لى سعاد شقةً صغيرةً بالدور الثانى بحى الشوربجى، حى شعبي قريب من منطقة زنين، لم أصدق حين أعطتنى المفتاح وعقد الإيجار باسمى، قبل أن أبدأ عملى كنتُ فى حاجةٍ إلى تدريب، كانت سعاد تحضرُ إلى الشقة فور انتهاء العيادة وهى تحمل السندوتشات، وأحيانًا كانت تقومُ لتطبخ بنفسها فى مطبخ شقتى الذى لم يكن به سوى بوتجاز قديم وبعض الأطباق الصاج. كانت تُحضر معها الخُضار وعلب السمن واللحمة.. أو الفراخ أحيانًا. بعد أن نتناول الغداء تجلسُ بالساعات لتدريبي على كيفية أداء الأدوار وتقمُّصها، وكيفية ارتداء ملابس كلّ شخصيةٍ بعنايةٍ، وعمل مكياج يخفى ملامحى تمامًا، كأنّها

مُخرج يُعطى تدريبات فن التمثيل لشابٍّ لا يعرف شيئًا عن التمثيل، خبرت سعاد تلك الصنعة وعرفتها، وحين سألتها لماذا لا تأتون بممثلٍ محترفٍ أو حتى كومبارس ليقوم بهذا الدور دون عناء تدريب عاطلٍ مثلى، ضحكتْ حتى شقلبت رقبتها للخلف كأنّها تذكرتْ أمرًا.. ثم قالتْ: "حدث فعلاً أن جلبنا كومبارس ليؤدى المهمة عن طريق أحد المتعهدين، وفى إحدى المرات كان مندمجًا وهو يؤدى دوره أمام زبائن العيادة بتقمصٍ شديد، فجأةً وجد المرضى وجهه على شاشة التليفزيون وهو يقومُ بدور عسكرى مرور فى مسلسل تليفزيونى، وطبعًا تعرف الباقي.. كانت فضيحة".. ضحكنا.

من ضيف على القاهرة أصبح لى بيت بفضل سعاد، طافت بي شوارعها، دخلت معها لأول مرة سينما بالسيدة زينب، هوايتها متابعة الأفلام، تعشقُ أبطال السينما، تغيب عن الدنيا حين تُظلم القاعة، تتوحَّد مع شاشة العرض المضيئة، عرفت من أين اكتسبت المهارة فى تدريبي، تحكى لى الفيلم مشهدًا مشهدًا، تحب الأفلام الرومانسية، أحيانًا تبكى تأثرًا، كلما سمعتْ عن فيلمٍ جديدٍ تصحبنى ليلاً لنشاهده، منذ أن دفنت فى كفِّى ورقةً صغيرةً دون أن يشعر عطية.. وهمستْ فى أذنى:

- انتظرنى فى هذا العنوان حتى أدربك على كل شيء.. لا تخبر عطية.

أصبحت سعاد هى كل شيء لى فى هذا العالم، تلاشي من ذاكرتى كل الماضي البغيض، عطية منصور بوجهه القميء وعينيه الجاحظتين، صناديق القمامة، جنينة الأورمان، مطاردة رجال الأمن خلفى وأن أوزع الترامادول. لم ينس الملعون أن يحصل على "قومسيونه"من الوظيفة الجديدة. تبِعتُ سعاد بوجهها الضاحك، صرتُ تلميذها النجيب، القاهرة ليست مثل الونايسة، فى الونايسة كل النَّاس فقراء،

أما هنا فالأمر مختلف، يركب البعضُ سيارات فارهةً والبعض الآخر تجده مُعلقًا على باب الأتوبيس المزدحم، يضع بالكاد قدمًا على الباب وقدمه الأخرى فى الهواء حتى يصل إلى محطته، منهم من يسكن "فيلا" أو شققًا فاخرةً تطلُ على النيل.. مثل الدكتور رمزى، ومنهم من يسكن البدروم والعشش على أطرافها فى تجمُّعات عشوائية سمحت بها الحكومة لكى تأمن غضبهم وتمرُّدهم، الفارق كبير، ليس كل أهل القاهرة سعداء. سعاد كانت هى بوابتى لهذا العالم المدهش، منحتنى كلَّ شيءٍ حتى جسدها، المرة الأولى التى اقتربتُ فيها من جسد امرأة بهذه الجرأة، سعاد لم تكن على قدر كبير من الجمال، استدارة الوسط والنهدان المتكوران بالأنوثة والرقبة المكتنزة، تعرف جيدًا كيف تثير رجلاً مثلى لا خبرة له، ستدفعه أن يدخل جسدها مُجبرًا، تعرفُ تعاريج النشوة وماهرة فى تلبية نداء الجسد، متى حان الوقت تجرّنى إلى سريرها، أدركتْ لهفتى إلى جسد امرأة، فتحت لى عالمًا من اللذة لم أكن أعرفه. المرأة حين تريدك ستفتح لك نوافذَ لعالمٍ لم تره من قبل، النّساء يمتلكن صندوق المتعة ويفتحنه لمن يرغبن فيه، معها أدمنت الترامادول الذى جرّبته مع عطية، لكننى أدمنته مع سعاد، كل شيء موجود بحقيبة سعاد، جاهزة لكل المواقف، تُحيلك من عالمٍ إلى آخر بقُرصٍ صغيرٍ من حقيبتها، تملك السحر اللذيذ، عشتُ حياةً مختلفةً لم أدر يومًا أننى سأعيشها، مساكين أهالى الونايسة الذين يعيشون على أطراف الحياة، لن يدخلوها قط.. لأنَّهم لا يعرفون سعاد، سعاد هى التى تمتلك تلك المفاتيح. فتحى القبّانى الذى يجلس بالساعات فى انتظار أن تقبض مصيدته على الأرنب البري، يا لها من سعادة تافهة، أن تمكث فى انتظار الصيد، يأتى أو لا يأتى، نُضيع نصف أعمارنا فى انتظار

ما لا يأتى، ونفقد نصفها الآخر فى التفكير فى الماضى المؤلم، نستدعيه لكى يُفسد حاضرنا، الماضى البغيض بقُرصٍ واحدٍ من حقيبة سعاد محوته، لم أعد أتذكرُ شيئًا عنه، حياتى البائسة فى الونايسة صارت سرابًا، لم يعد يؤلمنى تذكُّر أمى صفية التى تركتنى صغيرًا وهربت، حتى أبي لم أعد أتذكر ملامحه، الونايسي سيرتاحُ من ابن صفية.. ذلك الولد الذى يُشبه أمه، سيبدأ حياةً جديدةً دون امرأةٍ خائنةٍ أو ولدٍ صغيرٍ يُشبهها. ماضٍ سحيق لا يأتى ذكره إلا عبر رسائل نادرة يرسلها لى فتحى عبر الهاتف، يخبرنى فيها بأحوال الونايسة، فى أحيانٍ كثيرة أتجاهلُ فتحها، لا أريد أن أسمح للألم أن يعاودنى. ربما أخبرنى فى مكالمة هاتفية أن أبى تزوَّج بأخرى من بنات الونايسة وربما سينجب ولدًا آخر لا يشبهنى، لا أدرى، الترامادول يُهيِّئ لى أشياءً وأحداثًا لم تقع، حسنًا.. لا أود التذكر، سينسانى حتمًا، لن يحب أن يتذكر ذلك الولد الذى سرق كيس نقود جامع الونايسة، سيقول للنَّاس فى الونايسة إنَّه ليس ولدى.. إنَّه ابن صفية، هرب إليها بفعلته الدنيئة وخلّف لى ذكرى سيئة كأمه. يعرف أنه أخذ صفية خلسةً، يعرف أنها لو كانت قويةً لقالت لا، الذين يقولون لا هم الأقوياء، قَبِلته عن ضعف، رجال الونايسة يقتلهم التطفل ويسألونه فى جرأةٍ عن جسد صفية، كيف وجده شهيًّا طريًّا بضًّا خفيفًا كنور الفجر؟ كيف ينعمُ فى ليونته وبياضه ومنحناياته؟ ما طعم قبلتها؟ ما رائحة جسدها؟ المسكينُ لم يرد، ليلته الأولى مع صفية كانت ثقيلةً، تركها فى حجرةِ النّوم ومكث هو فى الدهليز الواسع، لا يعرف ماذا يفعل، أخرج زجاجة العرقى التى أحضرها له حسين البقَّال بناءً على طلبه.. لتعينه على ليلته الصعبة، الخيالات تلعبُ برأسه وهو يدلق العرقي فى بطنه، صفية تنام فى سريره بجسدها البض الطرى السابح فى سحر النّشوة،

وسعد الونايسي ينظر إلى المسافة التى تفصله عن بابها كأنَّها فراسخ، يتوه عقله ويغمغم ويزعقُ ويضحكُ ويبكى، العرقى وصفية أدخلاه فى متاهةٍ لا يعرف فيها يمينه من يساره، متاهة رأى نفسه فيها فارسًا ورأى نفسه مُحلقًا كطائر النّورس على البحيرة وهو يُطعم زوجته برفق، مضى حتى استحال دخانًا يتطايرُ فى سقفِ الدهليز، ترنَّح وسقط ككتلةٍ صخريةٍ على الأرض. ليلتها نام سعد فى الدهليز، نام كطفلٍ وديع دون أن يلمس جسد صفية، دون أن يتذوق طعم شفتيها الشهيتين، نام بعيدًا عن حضن صفية الدافئ. عندما يتحقق ما نحلم به ربما لا نكون مستعدين تمامًا للتعامل معه أو تصديقه، كلما سرتُ فى شوارع القاهرة أبحثُ عنها، قلت لنفسي: "حين أجدها لن ألومها". ربما وفى لحظةٍ أجدها أمامى بصحبة عشيقها سليم القفاص فى السينما، أو أجدها إلى جوارى فى الأتوبيس. أمى صفية تمتلك الجمال النادر، سيجعلها تعيشُ حياةً رغدةً مترفةً مثل كل الجميلات، ستسكن مثل أصحاب "الفيلات" فى كمبوند فسيح، فى لحظات الغياب بقرص ترامادول وكأس بيرة مثلج أهلوس بكلماتٍ عن صفية أمام سعاد، سعاد تستمع إلى حديثي وهى تنظر إلى وجهها فى المرآة، تحاول أن تخفى تجاعيده، تنتزع شعيرات صغيرة من الحاجب.. يؤلمها، تمسحُ بالمساحيق خيوطًا خفيفة سمراء تغزو بشرتها، كانت تكبرنى بسنوات ليست قليلة. ما قيمة الزمن والعمر؟ المهم أنها أعطتنى السعادة، السعادة تكمن فى جسد سعاد، فى قرص ترامادول، فى كأس بيرةٍ مثلج.

فى آخر رسالة لفتحى القبّانى على الموبايل قال لى: "أبوك سعد الونايسى صار يهذى، النَّاس يسمعونه يُكلِّم نفسه، ربما يحدث له مكروه قريبًا، يجب أن تعود من أجل أبيك". ضحكتُ.. علتْ ضحكاتى، على الفور

دخلت الإعدادات وضغطت على أمر حذف الرسالة، ظهرت على الشاشة رسالة "هل أنت متأكد أنك تريد الحذف؟". ضغطتُ "نعم". جائتنى "جارى الحذف".

هامش

لا أعرف لماذا لا أستطيع قراءة خطوطك؟ ببساطةٍ تبدو لوحاتك معقدة بالنسبة لهاوية مثلى، تخلط ألوانك بمهارةٍ ومع ذلك تجلسُ أمام الاستاند بالساعات دون أن تضع خطًّا واحدًا. ألوان الأكريليك، الباستيل، الفحم الأسود.. تملأ الشقة.

أعرف أن "بسيط" يُؤمن أن الجمال ليس فى التناسب والتناغم والهارموني، الجمال عنده يكمن فى السادية والجنس.. وربما فى القبيح والمشمئز. مروة عزيز تنفخ دخان شيشتها فى وجهى على كافيه زمان وتقسم لى أنَّه مجنون. أضحك، تميلُ بجذعها قليلاً حتى تقترب من أذنى، تُلقى سيلاً من النِكات البذيئة، نضحك بصوتٍ عالٍ، ينتبه بعض الشبان الجالسين على الكافيه من حولنا، نصبحُ محط أنظارهم وهم يتهامسون. هوايتها أن تجمع تلك النكات، أقولُ لها "وقحة". تجيبُ "يجب أن نفرم هذه الأيام المملة التى تمرُ بأقدام سلحفاة". ترمى خرطوم الشيشة من يدها حين أخبرها أن بسيط قرر أن يرسمنى. تُطلق ضحكتها المجنونة فى الهواء بطريقةٍ تُلفت أنظار الفضوليين من حولنا، أقف وأطلب منها أن ننصرف، تصر مروة أن أعزمها بهذه المناسبة، أُذعن لرغبتها، أمر بالسيارة الهيوندای على محل "نعمة" وأشترى لكلٍّ منا سندوتشين، أحمل الكيس إلى الرصيف المقابل للمحل. كعادتها تحبُ مروة عزيز الممازحة، لم تمرر الموقف دون أن تستغله للسخرية "أى مكانٍ فى جسدك بالضبط يثيرُ اهتمامه الفنى؟ الجزء الأعلى أم الأسفل؟". أضحك من طريقتها لكننى لم تواتنى الجرأة أن أخبرها بما يريده بسيط. قالت بلهجةٍ وقحةٍ "أعرف الجزء الذى يثيره أكثر". تطلق

ضحكةً فى الهواء، أشعر بالخجل. تقع خصلة من شعرى على وجهى، حاولتُ أن أمرر لها الأمر لكننى تراجعت فى الوقت المناسب، ستجعله مروة مادةً لسخريةٍ لاذعةٍ، لا داعى أن أفتح شهيتها للممازحة. نتلقَّى دفعات الهواء على الرصيف الذى يواجه محل "نعمة"، شعرها يتطاير ويلتفُّ حول عنقها بينما ربطتُ شعرى على هيئة ذيل حصان، طلبتْ مروة كوبين شاى من صبي "سرِّيح" يحملُ براد شاى وأكواب بلاستيك ويمر بها على زبائن الرصيف، صبَّ لنا كوبين، ابتسم الصبي لمروة وهو يناولها كوب الشاى البلاستيك، انصرف بعد أن نفحته مروة جنيهين ثم نادت عليه قبل أن يبتعد، ارتدَّ الصبي سريعًا، نفحته الثالث بقشيشًا، ابتسم فى رضا وسعادة..

- لستما من شباب الثورة، شباب الثورة لا يدفعون بقشيشًا.

سخرتُ من كرمها على غير العادة مع الصبي، قالتْ بصوتٍ خفيض وهى تثنى رقبتها على أذنى "مُعجب".. ضحكنا، قالت إنَّها سعيدة بيوم هادئ فى القاهرة دون مظاهرات ولا أمن ولا جدال، يوم هادئ كأيام القاهرة الجميلة. نزلتْ من السيارة بعد أن ودَّعتنى بقبلةٍ وحضنٍ، عدّلت من وضع مرآة السيارة وبحلقت فى وجهى، وانطلقت عائدةً أفكرُ فى الطريقة التى يرانى بها بسيط، أخشي أن يعاملنى كموديل، فقط مجرد بورتريه يرسمه ويضعه فى معرض لوحاته. ما الذى جعله يتجرأ ويطلب منى بجنون فنان جامح هذا الأمر؟ هل هو جنوح الفنان داخله أم هى غريزة الرجل؟ وقاحته عندما يظن أن جسدى ملك له وحده، يفعلُ به ما يشاء وأننى قد تنازلت له عن كامل جسدي بمجرد أن تقوم بيننا علاقة، الرجلُ يفكرُ فى المرأةِ كسلعةٍ يستهلكها متى يشاء وفى أى وقتٍ مثل السيجارة عندما ينتهى تبغها يُلقيها تحت قدمه

ويدوسها بحذائه. هل امتلكنى بهذا العقد الذى كتبناه.. أو ربما لم نكتبه؟ كنا غارقين فى شرب البيرة ساعتها، اقترح هو أن نكتب عقدًا، ربما أنا التى اقترحت ذلك.. لا أذكر. حين أراد أن يرقدَ إلى جوارى على السرير، قلتُ له "لا يجوز أن يحدثَ أمرٌ كهذا بين رجل وامرأة فى الشرق دون عقدٍ". هل ظن أنَّه عقد ملكية؟ صرت عنده مثل لوحةٍ يقتنيها، فكرتُ أن أعود وأهاتف مروة، سأطلبُ منها أن أقضي معها هذه الليلة فى شقتها، لن تمانع، سأتركه فى ملل الانتظار، تراجعتُ عن فكرة العودة لمروة بعد أخرجت الهاتف من جيب الجاكيت، تخيلتها الآن نائمةً تحت الغطاء هى وشريف بهجت، تسري فى عروقهما لذةٌ لا معقولة، يقطفان لحظات سعادة ليست على الأرض، قلتُ لا يجب أن أزعجهما وأخرجهما مما هما فيه. أطفأت الموتور وركنت السيارة عند مطلع كوبرى الزمالك، أنزلت زجاج السيارة لأتلقى دفعات الهواء الآتية من النيل وأفكر فى عرض "بسيط" المجنون.

(6)

أسيل لا تُدخِّن مثلى.. بل تأكلُ سيجارتها المشتعلة بين أصابعها، تتذوقُ تبغه بحرفية امرأةٍ مُدخِّنة، فتاة المارينز ربما خبرت كل أنواع التبغ، وخبرت الفروق البسيطة بين كل نوعٍ من طعمه ومذاقه.. وربما من لون دخانه. تُمسك واحدةً بين أصابعها وتُمسك بيدها الأخرى فنجان النسكافيه، ترشفُ رشفةً ثم تسحبُ دخان سيجارتها بعذوبةٍ، تُغمض عينيها كأنَّها تلوكُ طعم دخانها ممزوجًا بالنسكافية. قليلون من يجمعون بين السيجارة والشيشة.. وأسيل واحدةً منهم، تتأملنى مُكومًا على سجادة الصالة، تمرقُ من جوارى إلى المطبخ، أختلسُ نظراتى إليها، كنتُ سأسألها إن كان لديها حبة واحدة من شريط الترامادول لأن رأسي يكاد ينفجر، لم أجد شجاعتى.. تسربت.. انهارت على أقدام فتاة المارينز القاسية رابطة الجأش المتحصنة داخل دفاعاتها، لا تُظهر شيئًا من أنوثتها، تتعمّدُ إخفاء تفاصيلها عنِّى، تكوّر نهدين صغيرين تحت بلوزةٍ بيضاء، مع خصر نحيف أسفله استدارة مؤخرة صغيرة ناعمة مشدودة ببنطلون جينز أزرق، تتجاهل نهمى إلى تفاصيلها، لا تريد أن تبدو مجرد امرأةٍ يشتهى تفاصيلها رجل، تحاولُ قدر الاستطاعة أن تُخفى تعاريج جسدها أمامى، ربما تخشانى، تدارى تقاطيعها المصنوعة بدقةٍ، تراوغُ كأنثى قويَّة تُجيد التحصُّن والفرار وقتما تشاء. تظن أنوثتها ضعفًا، أُدرك أنّها من نوعٍ خاص، هذه المرأة تحتاج إلى قرص واحد لتخرج الأنثى التى بداخلها، أود أن أسألها إن كانت جرّبت حبوب "أكسسة أو البلاية" التى تجلبها أميرة الفايد لأصدقائها الأثرياء فى حفلات "الإكستازى" أو حفلات "الخبوط"، تمر أنجيلاكا.. الخادمة

الفلبينية، أو أنجلا- كما تحبُ أن تناديها أميرة- على الضيوف، تُناولهم الحبوب. فى البداية رفضتْ ومنعتنى من الدخول إلى عالمها السرِّى، تُريد أميرة أن تُبقيه بعيدًا عنِّى رغم إلحاحى، سمعتُ عن هذه الحفلات وجنونها وصرتُ مهووسًا بها، حكت لى عنها سعاد كثيرًا فى جلساتنا فأصبحت أكثر شغفًا بها، عرفتُ أنَّ أميرة سمحت لصديقها الدكتور رمزى أن يكون أحد ضيوف حفلاتها الدائمين. ورغم إلحاحى المستمر على أميرة لم تسمح لى بدخول "الخبوط" إلا مرة واحدة فقط، لم يكن مسموحًا لأحد الاحتفاظ بهاتفه النقّال داخل الحفلة، هذه المرة كانت تُقيمها فى بيتها بالتجمع الخامس.. بمناسبة انتقالها إليه، بيت يشبه القصر.. هناك حول مياه حمَّام السباحة الزرقاء وعلى موسيقى تتنوّع بين (هاوس- بارتى- ميتال) عالم آخر. لو دخلت أسيل بفستان أزرق قصير فوق الركبة، يتعلق بحمّالتين على كتفيها تكشفان عن محيط صدر صغير، ومرتديةً جزمة بكعبٍ عالٍ مدبب، ورشَّت جسدها ببرفان شانيل، ستدخل حينها حفلة "الخبوط" شريطة أن تبتلع واحدة من حبوب "البلاية"، ساعتها ستكون أسيل امرأةً أخرى كالتى رأيتها هناك غارقةً فى لذةٍ بلا نهايةٍ، ستتخلى عن ترددها وستبدو امرأةً سعيدةً بلا تحفّظات. حتى أميرة الفايد فى تلك الليلة كانت امرأةً أخرى كما لم أعرفها من قبل، تقريبًا بلا ملابس.. بعد أن تخلصت منها فى منتصف الحفل، تحتفظُ بقطعتين فقط، ترقص وتتمايل بهستيريا، وقعت فى حضنى أكثر من مرة، لامستُ شفتيها واقتربتُ حتى لامست نهديها، لم تضعهما داخل حمالة صدر.. بل تركتهما يتقافزان بحُريةٍ، ضممتها إلى صدرى.. ربما كان يُهيأ لى، لم أكن أدرى، الفرق بين الحقيقة والوهم يتلاشي فلا تدرى ما يجرى لك، أيكون وهمًا، مجرد وهم.. وهمٌ لذيذ، هناك على حمّام

السباحة لن تعرف حدودًا للذة، ستقطفُ المتعة بلا خجل وسترقص كأنَّك بيلي جورج.. أشهر راقص على الدائرة الحديدية، وضعتنى امرأة الفايد على حافّة الخُرافة، على حافّة اللذة، عالم آخر انفتح بابه الليلة لى، القاهرةُ تعجُّ بعوالم لا حصر لها، ما بين عزبة الهجانة على أطراف القاهرة.. وبين "فيلا" أميرة فى التجمع سنوات، سنوات ضوئية كالتى تفصلنا عن الكواكب والأجرام السماوية، تحتاج إلى مكوك فضائي لكى تقطعها، القاهرة المنتفضة صباحًا بمظاهرات جمعة الغضب، اختفت وخرجت بوجه جديد لم أعرفه من قبل. حين وضعتْ لى سيجارة محشوةً بالحشيش فى فمي، أرسلتها مع أنجيلا.. أنجيلا وضعتها فى فمى واقتربت بالقدَّاحة، ضغطت على زر الإشعال، هبَّت النّار، أمسكت سريعًا بسيجارة الحشيش.. همستْ فى أذنى بحروف عربية مكسَّرة "الهانم تقول لك استمتع". نفختْ بدلالٍ فى نار القدَّاحة، انطلق المارد بداخلى، ظللت أتمايلُ مع الراقصين والراقصات طوال الليل، الطاقة التى اندفعت فى عروقى تجعلنى أحمل جبلاً على كتفىَّ وأرقص، لا يوجد أحد فى الحفل يحتفظ بوعيه سوى أنجيلا.. فتاة أميرة المقرَّبة، تلعبُ أدوارًا أكبر من كونها خادمة، حاولت استمالتها للرقص بالدوران حولها وهى فى طريقها إلى أميرة بمنشفة العرق، أعوقُ طريقها عامدًا، تحاول أنجيلا المرور دون امتعاض وبابتسامةٍ ودودةٍ اعتادت على رسمها بمهارة لكسب ود الجميع، كلما حاولتْ الإفلات منِّى تجدنى فى طريقها، لمحتها أميرة حائرةً، سددت لى نظرةً حادَّة، أفسحت لها الطريق فورًا لأداء مهمتها، مهمتها أن تمر بمنشفة العرق على جبهة أميرة وذراعيها وعنقها، وبمنشفة أخرى ترش جسدها ببرفان "كارولينا هيريرا" المليء بالجاذبية والإغراء، برفان خُلق لجسد امرأة جميلة ذات مؤخرة بدوران يُشبه قُبة سماوية غارقة

فى روائح البرجموت والجريب فروت، تدور فى مجالها السحرى بمنشفة العطور، تفوح روائح الفواكه والزهور، تمرر أنجيلا المنشفة برفقٍ حولها. لو أنَّها جعلتنى أحمل المنشفة بدلاً من أنجيلا وتُسلِّم لى جسدها طائعةً، سأحاول أن أمرر المنشفة لأماكن محظورة، أعرف أنها ستنهرنى لكننى سأراودها، سأكون أكثر مهارة من أنجيلا. فجأةً ينقطعُ التيار الكهربائي كالعادة، يعلو الصياح كأنَّهم ينتظرون انقطاعه، ثوان قليلة ويندلع صوت موتور المولِّد الكهربائي فتعود اللمبات للإضاءة، كان انقطاع التيار فرصةً لثوانٍ معدودة لاختلاس القبلات والأحضان، لم أدر إن كان ما أنا فيه الآن وهمًا أم حقيقة، انسحبت أنجيلا حاملةً طبق المناشف، كانت أميرة مرتبكةً.. ربما بسبب انقطاع الكهرباء فجأة.

"المهم الآن أن تعيش لحظات السعادة بكامل طاقتك، لا داعى للتفكير فى أشياء سلبية تمنعك من المتعة، المتعة غاية الإنسان، كن إنسانًا آخر ولو لمدة ساعات قليلة".. قالت لى أميرة هذه الكلمات وأنا أعبر من البوابة الرئيسية للفيلا، وهى تقف لاستقبال ضيوفها، بعدها ظللت خمسة أيام فى سرير سعاد، لا أستطيع أن أبرحه، سعاد عرفت أننى كنتُ ضيفًا فى "فيلا" أميرة الفايد، عرفتْ ما جرى لى، ظلت تداوى جسدى المنهار من تأثير هذه الليلة، سعاد خبيرة.. تعرف كيف تُخرج تأثير المخدر من جسدى المنهك. شيئًا فشيئًا تعافيت، حين أتانى صوتها وهى عارية تحت الدش تغنى "يا امه القمر ع الباب" لفايزة أحمد، عبر خيال سعاد عاريًا من خلف زجاج الحمّام مع صوتها ممزوجًا بماء الدش المنهمر والمختلط بصوت تدليك لوفة إسفنجية تحت رغاوى الشامبو الذى يُغطى جسدها، تلصصت كعادتى، رأيتها.. الدش يدفع ماءه بقوةٍ نحو جسدها العارى، سالت رغاوى الشامبو مع اندفاع الماء على أرضية

البانيو فى خيط إلى البلّاعة تاركةً جسدها ناعمًا، احتضنتها وتخلّصتُ من ملابسي، تحت الماء يبدو كلُّ شيءٍ مختلفًا، علينا أن نترك أنفسنا على راحتها لنُجرِّب شيئًا جديدًا، الماءُ الذى يندفعُ من فوقنا أضفى جوًّا من الإثارة لكائنين يمرحان فى العُري، تضحك سعاد وتصرخ "مجنون يا ونايسي.. مجنون، كنت مهدودًا من حبوب أميرة، ما الذى جرى لك وأخرجك من السرير؟". صرختْ سعاد وهى تتوجّع "لماذا يثور النَّاس طالما لديهم متعة الجسد؟ الجسد هو كلُّ شيءٍ فى هذا العالم، ما الذى تغير منذ خرج النَّاس فى الشوارع إلى الآن؟ لا شيء.. لا شيء سوى أننى الآن بين ذراعيك يا جابر، ألست تحبنى؟ أقصد.. ألا تحب جسدى؟". هززتُ رأسي كأننى أوافقها بينما كنت مترددًا، لم أجد ما أقوله، تدفعنى إلى حجرتها وتصرخ "هذا يكفى، ما الحب إلا حب الجسد، وما اللذة إلا لذة الجسد". ظلّت طوال الليل تُدخِّن وتشرب البيرة وتأكلُ شرائح البيتزا التى طلبتها ديلفرى، لم أحب البيتزا، دخلت المطبخ، ألقيت نظرةً على أدراج الثلاجة، أحضرتُ طبقًا عليه شرائح جبن رومى ولانشون وزيتون أسود ورغيفين، أكلتُ وغنّتْ سعاد أغنية عبد الحليم "الهوى هوايا".

لماذا لا تُطلق فتاة المارينز الآن الأنثى المحبوسة داخلها بأمر قائد عسكرى صارم؟ هل يُمكنها أن تغنى أغنية "الهوى هوايا" كما غنّتها سعاد؟ لم يكن صوت سعاد جميلاً لكننى متأكد أن صوت أسيل أجمل، ربما أجمل من صوت عبد الحليم نفسه، أعرف أن جسدًا مثل جسد أسيل يمتلئ بسحرٍ ربما لم يقربه بشرٌ من قبل، حتى فنانها التشكيلى "بسيط" لم يلتفت إلى أنوثتها.. بل كل ما كان يعنيه هو رسم خطوطه ومنحنياته، لم يعط لنفسه الوقت كى يرى أسيل، كلّ ما كان يشغله أن يرسمها داخل لوحةٍ ثم يمر النَّاسُ من أمام لوحته ويقولون "ما أروع هذه اللوحة

وخطوطها وتفاصيلها.. إنه رسَّام ماهر". ربما أبدع تلك اللوحة حقًا، لكنه لن يحظى بالاكتشاف الأول حيث تُولد الدهشة والفن معًا، حين يُدرك الرجل أنه أول من اكتشف جسد أنثاه، لحظة الكشف هذه لا يعادلها سوى إحساسك بكأس الشمبانيا وحبَّات الترامادول.. وخدر خفيف يلامس أطرافك من بعيد ويتركك فى بهوٍ فسيحٍ من الألق. يسيرُ بأصابعه حول خصرها ويلمسُ بكفه استدارة مؤخرتها، ربما إحساس مراوغ لن تستطيع أن تصفه بكلمات لكنه يُشبه طعم الإسبرسو مع سيجارة محشوة بالحشيش. بوسعك أن تجربه، سيكون لدخان السيجارة طعمًا ألذ، بوسعك أن تمرح فى جسد سعاد الذى دخله قبلك رجال كثيرون.. لكنَّك لن تستطيع أن تأتى بشعور "كريستوفر كولومبوس" وهو يضع قدمه على أرض أمريكا، كان المكتشف الأول، شعور لا يعادله شعور آخر. تعود من المطبخ حاملةً طبقًا به سندوتشات البورجر الغارق فى الكاتشب والمنتفخة بشرائح الطماطم وأوراق الكابوتشي الخضراء الطازجة، تضعه إلى جوارى وتنثنى لتمرر الفنجان أمام أنفي، رائحة النسكافية تملأ رئتىّ، أقوم من نومى، أراجع هندامى سريعًا وأمرر أصابعى فوق شعر رأسي لأسوِّيه، أتطلع إلى وجهها، صباح أسيل صباح مقلق ويدفعنى لأسأل عن السبب الذى جعلها تفتح لى باب شقتها فى هذا الوقت ثم تُخفينى عن أعين رجال الأمن، كيف امتلكت هذه المرأة تلك الشجاعة؟ وأين الشيخ خليل إمام جامع الونايسة من أسيل؟ كان يحدثنا عن المرأة التى خُلقت للطاعة، ها هى أسيل تستطيع أن تقود جيوشًا وتمتلك أسيرًا في شقّتها، تردد هذه العبارة أمامى كثيرًا، ظلّت تقولها حتى حفظتها..

- أنت أسير عندى، الأسير له حقوق فى المواثيق العالمية لكنَّه يظلُّ أسيرًا..

هل تفهم؟

فى إحدى المرات أيقظتنى فزعًا من نومى على صوت المكنسة الكهربائية العالى، طلبتْ منّى أن أُنظفَ الشقة بالكامل.. ثم دعتنى إلى مطبخها، طلبت أن أنظف لها كلَّ الأطباق والشوك والسكاكين بينما جلستْ أمامى تتصفَّح مجلة "مدام فيغارو"، على غلاف المجلة كانت سيدة أنيقة بوجه مُشرَّب بحُمرة فرنسية، وجسد نحيل ينم عن جمال خاص لامرأة غارقة فى بانيو مليء بالعسل واللبن طوال الليل، تصحو على زقزقة عصفور كناريا يمرح بشُبّاكها، تتمرد على كسلها بفنجان نسكافيه.. وتخرج إلى الحياة بلا مكياج، تتحدّى نساء الدنيا بجمالها البسيط الطازج، ترتدى جيب قصيرة فوق الركبة وبلوزة مزركشة ببُقع بُنية، تشبه نجمات السماء، تجلس إلى جوار طاولة خلفها برج إيفل العظيم. الجمال الفرنسي مثل قطعة الجاتوه، تجد فيه الطعم والشكل معًا. حاولتُ أن أجرَّها للحديث عن امرأة الغلاف الفرنسية، قلت لها ذلك التشبيه بين قطعة الجاتوه والمرأة الفرنسية، كنتُ أظنها ستكركر من الضحك، لكنَّها لم تُعرنى انتباهًا، غير أنها حملتْ شعرها الذى سقط على وجهها وجذبته للخلف، وبمشبك الشعر ربطته على هيئة ذيل حصان فبدت رائعةً كقطعة الجاتوه التى صُنعت بيد شيف فرنسي ماهر، بعد أن وضعها على طبق صينى أغرقها بالشيكولاتة ونشر على سطحها حُبيبات المكسَّرات المطحونة، وفى المنتصف وضع حبة كريز حمراء. تتصنَّع الانشغال فى تصفُّح المجلة، تصدر أوامرها المتتالية، تريد إسبرسو وشرائح بطاطس مقلية وملعقة عسل. أطيعها.. وكلما حاولت إظهار غضبي، تذكرنى بعبارتها القميئة..

- أنت أسير عندى.. ملكى.. بوسعى أن أسلمك أيها الخائن إلى قوات الأمن التى تتمركز أسفل العمارة.

أشعر أننى لست مقصودًا بما تفعله معى، كأنها تنتقم من آخر تعرفه، أسيل تُشبه القاهرة الغاضبة، الآن الكلُّ غاضب والكلُّ ناقم، ممن وعلى من؟ لا نعرف، ربما تظننى غاضبًا مثلهم. ضحكت فى نفسي، قررتُ أن أبقى أسيرًا لدى أسيل أفضل من الذهاب إلى السجن. المدهش أنها رغم تلك القسوة التى تُظهرها معى.. هذا الصباح توقظنى من نومى على رائحة النسكافية لأجد إلى جواري صينية استانلس مستديرة منقوشة بصورة طاووس، فى وسطها استقر فنجان وبعض سندوتشات البرجر إلى جواره، وشرائح طماطم وأكياس كاتشب حار، لم أصدق عينيّ، فركتهما دهشةً بإبهامى الأيمن، مددتُ يدى.. وضعتُ شريحة طماطم داخل كايزر البرجر وحملته إلى فمى، أحب ساندوتش البرجر، هممت أن أقضم قضمةً، كان صراخها يلاحقنى، صرختْ.. ألقيت ما بيدى.. تخليت عن البرجر سريعًا، فنجان النسكافية يهتز، سأتراجع عن رفعه من الصينية إلى فمى لأرشف رشفةً، تراجعتُ على صراخها، الأمر كان مصحوبًا بنظرة عينيها الحازمتين، أدركتُ أنّه لا يمكن التلكؤ فى تنفيذ الأمر المصحوب بصرخةٍ ونظرات حادة، ذكرتنى بأمى صفية، كانت تصرخُ فى وجهى عندما أمد يدى لآخذ قطعةً من اللَّحم الذى وضعته بعنايةٍ فوق طبق الأرز بالشعرية وتقول لى محذرة "طبق أبيك". ثم تُشير إلى طبق آخر به قطعة من الدهن مُغطى بقليل من اللَّحم الأحمر موضوعة أعلى الأرز وتقول "هذا طبقك يا جابر". تنبّهت وهى تنهى حديثها الذى لم أنتبه إليه.. بعد أن استويت بعيدًا عن الصينية الاستانلس، وقفتْ أمامى بلا حركةٍ.. زعقت: "الأسرى لا يأكلون البرجر".

فى هذه اللحظة تمنيتُ أن أستجمع شجاعتى وأفعل شيئين معًا، ألطمها على خدّها لطمةً شديدةً، ثم أفتح باب الشقة وأهرولُ على السلم،

سأقف أمام قوة الأمن لأسلم نفسي. تراجعتُ عن تنفيذ الأمر حين رأيتُ فى عينيها تحدّيًا جعل يدى تسكنُ مكانها، ولاحت لى فكرة الهرب كحلٍّ سريعٍ آمن. هرولتُ من أمامها وأنا أتقافز مثل الأرنب البرى الذى وقع فى مصيدة فتحى فى جبل الونايسة، وقعتُ فى مصيدة أسيل، الحل أن أهرب من أمامها إلى المطبخ، قَدِمتْ خلفى، انحنت على أرضية المطبخ ورفعت قطعة القماش التى تُغطى طبقًا به سندوتشات الفول والطعمية، بقدمها قرَّبت الطبق لى، فهمت مقصدها، جلستُ القرفصاء كأسير ومددت يدى، أخذتُ واحدًا وقضمت قطعة، رحت ألوكها بأسنانى غارقًا فى أسئلة مُدهشة عن إحساس الوضاعة الذى يسيطر علىَّ الآن، إحساس لم أجربه من قبل.. بل ربما قارب إحساسي وأنا أُجهز على كيس نقود جامع الونايسة، بالضبط نفس شعور الحاجة والفقر.. الوضاعة، لا أعرفُ لماذ تخيلتُ نفسي مثل أنجيلا.. خادمة أميرة الفايد، ستجلسُ الآن مثلى القرفصاء وتأكل سندوتشات الفول فى مطبخ أميرة، أم هى الآن جالسة على مائدة أميرة العامرة بأشهى الأطعمة؟ ستطعمها فى فمها وتداعبها مثل قطة، ليت أسيل تعاملنى كخادم وتدعنى أمر بطبق المناشف على جسدها الطري البض، أسيل واقفة كعود زان ممشوق، تنظر إلىّ مبتسمةً سعيدةً بانهزامى، رجل منبطح على أرضية المطبخ يأكلُ بنهمٍ وشراهةٍ كأنَّ الأمر لا يعنيه، ستندهشُ من سلوكى ووضاعتى، أضحكُ فى داخلى وأقول "وماذا تعرفين عن إنسان أكل من صناديق القمامة ونام فى عراء جنينة الأورمان، ذاق لسعة برد الشتاء وذاق لهيب حرارة الصيف، هام فى شوارع القاهرة ككلبٍ ضآل بلا مأوى، نهشت جسده جرذان الأورمان وسال لعابها على جلدى؟ تأسفين لتراجعى وتندهشين من انهزامى، تريدين أن تعرفى ما الذى يدور فى عقلى الآن؟

لا شيء. تريدين أن أحدد لك مشاعرى حين جمدت يدى ونزعتها خوفًا؟ سأقولُ لك لا شيء، المرأةُ تستطيعُ أن تهزم الرجل، يُمكنها أن تجعله رهينةً لديها كما تفعلين معى، مجرد أسير يطيعها متى أمرت، أخشى أن يكون لعينى أسيل قدرة تستطيع بهما أن تنفذ إلى داخلى فتدرك ذلك الشبه بينى وبين أنجيلا، أنا لم أحدثها عن أنجيلا، بعض النسوة يفتقدن بعض الشجاعة والإقدام، لهذا يفوتهن أشياء ثمينة ولحظات أسعد، بعض النسوة لا يمتلكن شجاعة إشهار أسلحتهن ويبقين خانعات، تقفُ الواحدة منهنّ أمامك.. تحدثك كأنَّها تُؤدى دورًا فى مسلسل رديء، النِّساء خُلقن أقوياء.. لكن مهارة الرجل على مدار التاريخ جعلته يروِّض شراستهن ويُدخلهن الحظيرة، فى عصور ما قبل التاريخ كانت المرأةُ قويةً، شرسةً، تتحكمُ فى الرجل. أفقتُ من شرودى والساندوتش فى يدى على صراخ أسيل..

- هذه هى إحدى طرق التعذيب المعنوى للأسرى، قرأتُ عنها وأردتُ أن أجربها معك، حتى أخضعك.

حين قضمتُ قضمةً أخرى صرختُ وفمى يشتعلُ نارًا. كركرتْ ضحكًا بعد أن شاهدتْ تأثير فعلتها، رأت بقايا الطعام وقد تناثرت على أرضية المطبخ، قذفته من فمى جبرًا وعلى دفعةٍ واحدة، قالتْ بهدوء:

- يجب أن تُعدَّ نفسك لكل أنواع التعذيب؟

- الشطة نار، لا أحب الشطة.

- لكن الأسير لا يحب ولا يكره، يجبُ أن تأكل فى صمت، أنت مجرد دمية أستعذب اللعب بها.. حتى لا أفكر فى تسليمك للأمن ويكون مصيرك السجن.

لاح أمامى فى تلك اللحظة عم أمين العجوز.. الذى كلما تلاقينا صدفةً فى

زحمة الميدان يبادرنى بسؤاله:
- يا أستاذ.. الدنيا صيام، ماذا سيطعموننا على الفطار؟
أبتسمُ له ابتسامةً ودودةً وأنا أرثي حاله، يُكرر نفس العبارات بنفس "التون" ونفس النبرة على كلِّ مَنْ يجده فى طريقه، يُذكرنى بأداء نجيب الريحانى فى "غزل البنات"، كان رائعًا فى دور الفقير ذى الحظ العاثر، وكان العجوز يدعو مخلصًا:
- يارب يكون الفطار لحمة أو فراخ، الواحد زهق من أكل الفول والطعمية.
العجوز يظلّ يُكرر سؤاله على كلِّ مَنْ يُقابلُه فى الميدان مثلما يفعلُ معى، فعلٌ عبثى عدمى متكرر، كلما قابلته أتأملُ تجاعيد وجهه ولا أجيبه عن سؤاله الذى لا يطرح سواه "ماذا سنأكل على الفطار يا بنى؟".
كانت أسيل تهاتف امرأةً أخرى، تحدثت فى السياسة، قالت كلامًا عن المظاهرات التى تجرى.. ثم سكتت قليلاً كأنها تستمع إلى الطرف الآخر على الهاتف.. ثم اندفعت تقولُ بحماس طلاب الجامعة:
- "هؤلاء البسطاء لا تعنيهم السياسة، الحكومةُ لا تفهم أنَّ الطريق إلى التمرد يمر عبر سد الرمق، الفقراءُ لا يثورون ولكن يبحثون عن لقمة العيش وعن المأوى، الحكومةُ فى السنوات الأخيرة تُصادق بودٍّ رجال الأعمال، ربما خرج أحدُهم غضبًا من الحكومة، البعضُ خرج ليُخيف الحكومة ويُخرج لها العين الحمراء ويُعلن تمرده عليها، حتى تعرفه وتُحس بألمه وتمسح على أوجاعه، لكنَّ الحكومات لا تُفرِّق بين المتمردين وبين الجائعين، تطارد الجميع بسيفٍ واحد".
ضحكتُ.. كيف تلوم الحكومة وهى تعاملنى كفأر تجارب؟ داخل كل منا يجلسُ ديكتاتور متسلط لا نشعر بوجوده، لكنّه وراء أفعالنا

المتسلطة على الآخرين. تركتنى أسيل بعد أن راقبتْ أسيرها ورأته ينكفئ على سندوتشات الفول ويلتهمها كفأرٍ جائع، أسيل استغلت حاجتى للأمان وساومتنى على حريتى، مثلما تفعل الحكومات فى بلادنا، تُخيرنا بين الطعام والحرية، إما أن تُطعمنا وإما تمنحنا حقوقًا وحُريات، لا يُمكن لأسيرٍ أن يشعر بالأمان. تُشعل سيجارتها الثانية وتسحب دخانها فى شوقٍ وتنفثه فى وجهى، أتأملُ هدوءها، ألقتْ لى نصف سيجارتها الـ "إل إم" المشتعل، ألتقطه من الأرض وأدسّه فى فمى كمدمن شره، جذبت نفسًا عميقًا من دخان السيجارة حتى كدت أجهز عليها دفعةً واحدة، منذ أن دخلت شقتها لم أذق طعم التبغ. خرجتْ بدلال بعد أن نظرت لجسدي المتكوم على أرضية المطبخ يدخن بقايا سيجارتها، أشبه تلميذ إعدادى يبحث عن أعقاب سجائر والده فى سلة القمامة بالبيت. أعطتنى ظهرها وخرجت، تسير كمنتصرةٍ فخورة، تملَّكنى الغيظ، رأيتُ سكينًا عريضًا على الرخامة، لم يبق سوى أن أقوم وأفعل ما انتويته، لن أبقى أسيرًا لدى هذه المرأة السادية، حان الوقت لأتخذ القرار، ارتكزت على كفّى وقمتُ سائرًا نحوها فى تصميم على تنفيذ ما أردت، قبضتُ على السكين وأحكمتُ قبضتى عليها بأصابعى الخمسة كمن هو عازم على التنفيذ.. بينما أسيل فتاة المارينز القوية تسيرُ بهدوءٍ وبكامل أنوثتها نحو الباب ترتدى الجينز وبلوزة صفراء وتضعُ روجًا خفيفًا، تحتضن شنطتها، قالت بصوت ناعم: أنا ذاهبة إلى العمل، لا يجب أن تُحدث أية حركة تجعلهم يشكون فى الأمر.

هززتُ رأسي طائعًا علامة على الموافقة. مضت حتى وصلت إلى الباب ثم عادت كأنَّها تذكرت أمرًا..

- لا تنس نظافة الشقة، كل ركن فيها، عدا غرفة نومى.. لا تقترب منها.

ملابسي.. لا تقترب من الأندر وير، أعرف فضول الأسرى.
ألقت بكلماتها الأخيرة فى وجهى ثم استدارت متجهةً نحو الباب. أومأتُ برأسي لظلِّها الممتد بطول الصالة بالموافقة، تراخت أصابعى على مقبض سكين المطبخ، أتابع خصلات شعرها وهى تهتز على أثر سيرها بالكعب العالى، رائحة شانيل تفوح فى المكان تختلط بدخان التبغ، أدركتُ مدى عجزي، لا أمتلك إرادةً لتحدِّيها، أفكر الآن بها، ربما ستتجهه فى هذه الساعة لتقابل فتاها، ستخبره بما تفعله معى وسيضحكان معًا وهما يشربان القهوة، سيُمسك يدها ليصنعا معًا مشهداً رومانسيًّا من سينما الستينيات، ستصف له أسيرها النائم على سجادة الصالة يقلم أظافره وينبش فى بقايا طبق البرجر، أسيرها الذى لا يُقاوِم، يستسلم لرغباتها السادية، ربما يشفق فتاها على الأسير، يكف عن مواصلة الضحك، وربما فى ذات الوقت يغار من رجلٍ يشارك فتاته جدران شقتها وأنفاسها والجزء المتبقى من سيجارتها الـ "إل إم". يضع شفتيه على شفتيها تمامًا.. سيطلب منها حالا أن تطلق سراحى، لن يطيق أن تعيش مع رجلٍ غريب. ستأتى الآن أسيل وتُطلق سراحى.. من سيكون فى انتظارى غير الجُند؟ اللعنة.. حين يكون الأسر هو الاختيار الأفضل، سأرجوها أن تُبقينى هنا، لن أعصي لها أمرًا، لا يجب أن تستمع لكلام فتاها وتطلق سراحى، هو يغار منِّى، أقصد يغار من وجودى إلى جوار أسيل، أعدكِ.. لن أتمرد على أوامرك مطلقًا، لا يوجد داخلى أىُّ تمرُّدٍ، داخلى لا يوجد به سوى فراغ وهواء وإحساس بالعدم يسكننى. "تمرُّد".. هذه الكلمة محوتها من قاموسي منذ خرجت من الونايسة، محوتها مثل كل العبيد الفقراء فى هذا العالم. ما أنا فيه هو عقاب من الله لمثلى، مارست كل أنواع الشر فى السابق وأستحق العقاب الآن. استسلمت لفكرة العقاب

هذه ورأيتها مبررًا معقولاً لاستسلامى ورفضى المقاومة، إذا أراد الله عقابي لن ترد مشيئته أية قوة، أسيل هى وسيلته فى عقابي وعلىَّ أن أذعن.

تابعت سيرها فى الميدان من خلف النافذة، وحين رأيت أحد الضباط يستوقفها شعرت بالقلق بعدما طال وقوفها أمامه، عصفت بي الظنون.. ربما تخبره عنِّى ويصعد حالاً للقبض علىّ، يجب أن أستعد. طال شرودى خلف ستارة النافذة. فى الناحية الأخرى كانت الأطلال، المنصة العالية ذات الميكرفونات الرنَّانة، المطبخ حيث الزحام.. وبعده مكان السادة وأريكة المقرَّبين. فقدت كل حيلى السابقة، تذكرت.. يجب علىَّ تنظيف الشقة كما طلبت، ربما تعود فى أية لحظة وتجد الشقة كما تركتها. فكرت طويلاً من أين أبدأ النظافة؟ من الصالة، أم من الحمَّام، أم من غرفة نومها؟ سأبدأ من الدولاب حيث ملابسها، ترى.. كيف تختار ألوان قمصان نومها؟ ربما وضعت الأندرويز فى مكان لا أستطيع أن أصل إليه. ما مقاسها؟ استدارة مؤخرتها تنبئ أن مقاسها "ميديم". طال تفكيرى.. لم يكن لى خبرة سابقة فى تنظيف الشقق أو مقاسات الأندرويز. هل تمنح أميرة الفايد خادمتها أنجيلا الأندر الخاص بها؟ أميرة تشترى تراند، بعض الفلبينيات يستخدمن الأندر فى عمل السحر، ربما أنجيلا فعلت ذلك مع أميرة، تخيط لها الطلاسم والتعاويذ وبعض التمائم فى بطانة الأندر، وهذا ما يُفسّر تعلُّق أميرة الفايد بها، ربما لا تفارقها أبدًا، حتى حين ذهبنا سويًّا إلى ميدان التحرير كانت أنجيلا تجلس فى السيارة الـ "بي إم".. بعد أن ناولت أميرة الجاكيت لكى تضعه على كتفيها العاريتين.. حتى تدخل الميدان مع الثائرين.

(7)

لم أكن أعرفُ أنَّها ستُغيّر حياتى إلى هذه الدرجة، سحرٌ يجعلك مسلوب الإرادة، لا يمكن أن تتردد فى الاستجابة لحواسك الداخلية التى ستعلن أنَّها قد سيطرت عليها تمامًا من أول جولةٍ.. حتى لو كنت تملك إرادة فولاذية تجاه النَّساء، أى نوع من النَّساء هذه المرأة؟ هى معجونة بسحرٍ سُليمانى لا يقدر على فكّه أعتى السحرة.. أو كبراء المشعوذين؟ لن يُنجيك شيء، ستقع عن آخرك فى أتونها، ستتخلى عن كبريائك وتعترف أنَّك صرت تابعًا لا أكثر.. مثل كثيرين قبلك، هى تملك شفرة الدخول السرّي إلى جسدك، وستدرك أن قدرة المقاومة لديك قد انهارت، وأنَّك واقع لا محالة فى أتون أميرة الفايد، المرأة التى دخلت حياتى فقلبتها رأسًا على عقب. أذكر خيبتى حين قادتنى الصدفة للتعرف عليها فى عيادة الدكتور رمزى، رأيتها جالسةً فى العيادة، كانت تنتظر خروج المريض من غرفة الكشف، كنت أتأهب لأداء دورى كالمعتاد، ارتديت هذه المرة- بناء على جدول سعاد- بدلة ورابطة عنق، بدوت كأفندى متعجرف، خرجتُ لأداء دورى، لفت نظرى حضورها الأسطورى، ترتدى بلوزة بحمّالة واحدة.. والكتف الآخر عارٍ، وبنطلون جينز رمادى، رائحة كوكوشانيل المثيرة تنتشر فى العيادة، أحالتها حديقةً غنّاء، جلستْ كأميرةٍ مطرزةٍ بالألق، بدأتُ فى أداء دورى كالعادة، هذه المرة أبدو مرتبكًا.. قلقًا، المسرح كان جاهزًا لعرض الليلة لكن الممثل فقد قدرته على الأداء.. تخلى عن دور البطولة، ستكون هى سيدة العرض وأنا الكومبارس، استحوذت على اهتمام الجميع.. حتى الممثل الفاشل، استحال عرض الليلة إلى عرض ميلودرامى حزين، بدأته بطريقةٍ سمجةٍ

خرقاء.. مثل ممثل جديد يؤدى دوره الأول أمام جمهور المسرح، كل قطعة فى جسدى تهتز، أداء تقليدى باهت سخيف لا يليق بحضورها البهى. قلتُ فى غباء موجهًا حديثي إليها بطريقةٍ مباشرةٍ تُوحى بتورطى فى المشهد:

- حضرتك يا مدام أول مرة تأتى إلى هنا، هذا الطبيب من أفضل الدكاترة.

كان أداءً باهتًا، بصوتٍ مهتز، لم أكن طبيعيًّا، بدوتُ كمن يحاول التعرف على فتاةٍ فى حديقةٍ عامة، صرت أُشبه ممثلى مسرح يوسف وهبي حيث الأداء الاستعراضي. لم تُجب.. ولم تنظر ناحيتى، رائحة البرفان خدَّرت أعصابي، تركتنى فى مساحةٍ من الفراغ الكونى اللذيذ كأننى خارج الزمن، فى منزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة. سعاد على غير عادتها تحاول أن تلفت نظرى لشيء لم أفهمه، لماذا خرجتْ عن التقاليد التى أرسيناها سويًّا بعدم تدخُّلها فى العرض حتى لا تفسده وينكشف الملعوب.. ويدرك المرضى أننا نفتعل موقفًا. فى البداية شعرت بالحرج.. تنهدتُ وأردتُ ألا أخسر المعركة سريعًا، تعاملت مع مثل هذا النوع من زبائن العيادة، أحدهم لا يبالى بحديثك ولا يعيرك اهتمامًا، وربما ينظر فى الناحية الأخرى ليعلن ضجره منك وأنه لا يبالى بما تقوله، هنا يجب أن أتدارك الموقف وبسرعةٍ تبدأ خطتى الثانية.. حين أيقنت أن المرأة المنتشية برائحة شانيل تحاول الفرار من أدائي التمثيلى السمج، انقلب العرض إلى مشهدٍ ساخر حين رأيت وجه سعاد الذى ارتسمت عليه ابتسامة طفل.. بدأتُ رحلة التطفل الغبية..

- أنا يا مدام كنت بعانى بشكل مخيف.. وذهبت إلى كل الدكاترة.

أخرجتْ من شنطتها سماعة موبايل وضعتها فى أذنيها وأخذت تهز جسمها على إيقاع الموسيقى التى تسمعها وحدها. حينها تدخَّلت سعاد

كمخرج سمج، دلفت سريعًا إلى حجرة الكشف.. ثم عادت مسرعة..
- مدام أميرة.. الدكتور رمزى فى انتظارك.
دون أن تعيرنى أى اهتمامٍ مضت إلى حجرة الطبيب كعارضة أزياء رشيقة، تركتنى أسقط فى حمّام ثلج، ارتعاشة خفيفة تدب فى خلايا جسدى وأنا أتابعها بقوامها الممشوق، واستدارة خصر نحيف يعلو مؤخرة مكتنزة بدوران خفيف، وأوراكها المحشورة فى بنطلون جنز رمادى ضيق، أنثى رائقة وصافية صفاء نبع الماء، وروحها المحفوفة بلدائن الذهب النقي نقاء الخلود، اتجهت صوب باب حجرة الكشف، سعاد كانت أمامها تفسح لها الطريق إلى باب حجرة الكشف كزائر مهم وهى لا تكف عن ترديد كلمات الترحيب بها كأنّها تعرفها. كنت سائرًا خلفها دون إرادةٍ كأننى حارسها الشخصي، لاحظت سعاد.. فجأةً حالت ذراعها بينى وبين عبور باب غرفة الكشف، وضعتها بعرض الباب بعد أن مرَّت هى لتمنعنى من الدخول خلفها، لكزتنى سعاد بعنفٍ فى كتفى، ربما أرادت أن تُوقظنى من سُباتى، رمقتنى بنظرات لوم لم أفهم دوافعها، هل تلومنى لانشغالى بامرأةٍ أخرى غيرها أم لخروجى عن النص فى عرض الليلة؟ توقفتْ عن السير واستدارت عائدةً لمكانها، سوَّت أوراقها وبادلت المرضى الوافدين على العيادة ابتسامات باردة، عدَّلت بعدها من هندامها وقامت تتجه نحوى، ارتبكت وتراجعت للخلف دفعةً واحدة، تُرى ماذا تريد منى؟ هيئتها تنم عن رغبتها فى توجيه لكمة قوية تخرجنى من غيبوبة تُشبه الغيبوبة التى تهز جسدى من كأس البراندى، ليت سعاد فعلت، ليتها لطمتنى على وجهى وصفعتنى بقوةٍ لتخرجنى من حسرةٍ انتابتنى بعد غلق باب حجرة الكشف الذى حال بينى وبين امرأة الشانيل، ربما هى الآن راقدة أمام

الدكتور رمزى على سرير الكشف، ممددة بكل حُسنها وجسدها المبلل برائحة كوكوشانيل الساحر، جسد أنثوى مصنوع بمهارة أزميل فنان فرعونى قديم، أراد أن يصنع ربةً للجمال، كل سنتيمتر فيه مصنوع بكف فنان أرابيسك ماهر، أو هى فى حقيقتها امرأة داخل لوحة لمايكل أنجلو على حائط كنيسةٍ، رسمها بعنايةٍ وخط خطوطها بروحه ودمه على هيئة ملاك، لم يستعن بريشةٍ أو ألوان صناعية، جمال يصل إلى حافة الروح. مالت سعاد بجذعها حتى اقتربت من أذنى بينما أحاول الفكاك من حصارها، همست..

- ممثل فاشل.

تركتنى والعرقُ يغمر جسدى وقد أدخلتنى فى التيه، لم أعد لانتباهى والدوار يضرب رأسي، لم يعد لدى قدرة على الوقوف، ظللت كحجرٍ صلد فى سكونى.. بينما ارتفعت عبارات الترحاب التى رددتها سعاد لكى تنهى العرض الفاشل الذى صنعته منذ قليل، لولا تصرُّف سعاد بذكاء لكنت الآن مطرودًا من عملى. كانت كلمات الترحاب تتقافز على شفتيّ سعاد حتى أدخلتها عند الدكتور رمزى، حاولت أن ألوذ بها فلم تعرنى اهتمامًا، الآن طلبت منى أن أتبعها لحجرتها، لدينا كبشر الرغبة الدائمة للبقاء فى منطقة الغموض، الرغبة التى تأكلنى الآن لمعرفة كنه امرأة الشانيل استفحلت داخلى. دخلت أميرة الفايد حياتى عنوةً، أصبح لدىّ إحساس قوى أنها ستقترب منِّى وأن اليوم لن يكون الأخير للقائي بها، دائمًا ما يباغتك إحساس كهذا عندما تقابل شخصًا ما صدفةً وتدرك أن هذا اللقاء لن يكون الأخير، كلما اتسعت المنطقة الضبابية اتسع نهمى للمعرفة وللغوص فيها واكتشافها، خرجت من شرودى على كف سعاد يهز كتفى..

- ما الذى فعلته يا جابر؟
- مثل كل يوم.
- لا.. أنت تكذب.
- من تكون؟
- أميرة هانم الفايد.
- أميرة الفايد!
- أخشى أن تشتكى للدكتور رمزى فيكون مصيرك الطرد، كلمة أميرة الفايد نافذة.

بعد انتهاء موعد العيادة عدتُ إلى الشقة رغم عروض سعاد المتتالية أن نخرج سويًّا إلى السينما أو المسرح أو النادى، رفضت كل شيء حتى أن تأتى معى إلى الشقة كما كانت تفعل حينما لا نفكر فى الخروج، اعتذرت لها بحجة أننى مُجهد، ألقيتُ جسدى على السرير ورحت فى نومٍ عميق، حتمًا سيكون مصيرى الطرد، سأعود إلى جنينة الأورمان وصناديق القمامة، لم يوقظنى من سُباتى سوى طرقات متتالية قوية على الباب، ظننتها سعاد جاءت لتخبرنى بقرار الدكتور رمزى.. الطرد، فكرتُ ألا أفتح الباب وأتركها تعود، صورة أميرة الفايد لا تبرح خيالى، تراجعت أمام إصرارها على الطرق بقوةٍ كأن هناك شيئًا مُهمًّا، قلتُ لم لا أدعها تدخل حتى ولو حملت خبرًا سيئًا، لا مهرب، سأقضي معها ليلةً ربما تُنسينى امرأة الفايد التى جلست فى عقلى ولم تبرح خيالى من لحظة أن رأيتها صباحًا. سعاد رغم قلة جمالها لكنّها تمتلك مهارة أنثى لا يقاومها رجل، بوسعك أن تقضي الآن ليلة مع سعاد تُنسيك أميرة، ستنجح سعاد فى أن تخرجها من عقلك وتلقى بها من شباك غرفة نومك. استحسنتُ الفكرة، هممتُ بتثاقل، اتجهتُ ناحية الباب

أتوق أن ألقفها بين يدى من لحظة دخولها ولن أدعها حتى تُخرج تلك المرأة من جسدى. فتحت الباب، ترى.. من الذى ذكَّره بي الآن؟ وجهه أعاد لى عذاباتى الأولى التى لا تزال كامنةً داخلى.. لم تبرحنى.. لم تدعنى أهنأ. لماذا نحتفظ بالتفاصيل المؤلمة فى حافظتنا الشخصية؟ حتى الآن أحتفظ بذكرياتى المؤلمة فى الونايسة كبقعة سوداء داكنة لا ينسلُّ إليها ضوء نافذة ضعيف ينير دهاليز روحى. لاحظت عينيه التى اخترقت زجاجات البيرة المحتشدة على الطاولة، هرع إليها وصب كأسًا وراح يشرب بنهم، كانت عيناه حمراوتين وملامحه ناشفة، وجهه جامد وعروق يديه نافرة زرقاء، التجاعيد تحيط برقبته، كل هذا التغير حدث في جسد عطية منصور، ربما اشتد اعوجاج قامته وصار الانحناء أكثر وضوحًا، مسح فمه بعد أن تناول كأس بيرة وابتلع قرصي ترامادول، كان شريط الترامادول إلى جوار زجاجات البيرة، بدا منتشيًا. هل جاء لابتزازى كعادته، خرج توًّا من خموله، علامات البهجة اعتلت وجهه النحيف، تمايل من السعادة حتى قعد القرفصاء على أرضية الصالة، حاولت أن أبدو صارمًا معه..

- القاهرة جادت عليك بخيراتها. هيا إلى قهوة شعبان وهناك ستعرف سبب زياتى.

منذ كنتُ صغيرًا فى الونايسة كنت أصعد وعدد من أطفال مدرستى إلى جبل الونايسة.. هناك بالقرب من عشّة شيخ الونايسة الرابضة هناك أعلى قمة الجبل، نلتف حولها حتى يرسل لنا الشيخ قطعًا من الجبن الشوالى وبعض الأرغفة الناشفة وحبّات الطماطم، كنا نأكلها ونحن نتقافز حول عشته تحت المطر الذى تُرسله السماء محبةً لنا، كنا نفعل ذلك يوم الخميس.. حيث نساء الونايسة ينتظرن ليلة الخميس

بفارغ الصبر من الصباح الباكر، يذهبن إلى الترعة، يخلعن ملابسهنَّ فى العشّة ويهبطن فى مائها، يُزحن عن أجسادهن البضَّة عناء الأسبوع كله فى عمل البيت، يرفلنَّ فى الماء قرابة الساعة، تبدأ الطقوس بأن تفك كل واحدةٍ ضفيرة شعرها وتترك شعرها سابحًا على سطح الماء، حالا ستتخلى كل واحدة عن ملابسها قطعة قطعة تحت الماء.. وبعيدًا عن أعين المتلصصين، يدلكن أجسادهنَّ بطين الترعة الناعم السخى، يعرفن أن طين الترعة له فعل السحر فى أجساد أرهقها عمل البيت وتربية الصغار وتنظيف المنازل وإطعام الطيور، اليوم يوم الخميس، غدًا إجازة الجمعة، سيسهرن حتى الفجر فى المداعبة، ستدخل أجسادهن رعشة خفيفة ينتظرنها كل أسبوع فى شوق، شيء بسيط يجعلهن فى قمة السعادة، ينتظرن ذلك اليوم كأنهنّ على موعدٍ مع ساحرٍ سيجلبُ لهنَّ السعادة، يُنشّفن أجسادهن بالمناشف ويعُدن إلى بيوتهن فى انتظار السعادة ليلا، النّساء فى الونايسة يطلقن أولادهن للعب خارج البيت، ينفردن بالرجال. نظل فى الجبل نلعب ونلهو حول عشة الشيخ فى أمان.. كأننا فى صلاة، كانت نفحاته عطرية، لم نره، لكننا كنا نشعر بوجوده حولنا وأنه يحمينا من ضباع الجبل وذئابه، كنا نخلع ملابسنا، نظل عراةً تحت المطر، نتقافز، نلعب، وحدى من حاولتُ أن أقترب من شبّاك العشة، صعدتُ ممسكًا بعيدان الجزورين حتى رفعت قدمىَّ عن الأرض واستطعت أن أنظر إلى الداخل.

هامش

هل أخطأتُ حين تركته لامرأةٍ ذات ردف يستدير على هيئة قُبة سماوية، مروة عزيز غمزت له بطرف عينها اليسرى لكنّه ظلَّ يحدق بي، لم يرفع عينه عنى، دورانات داخان الشيشة التى أنفثها تحجبُ وجهه للحظاتٍ، يشبه الفتى "زاك إيفرون" ممثل هليود الشهير فى فيلم "نحن أصدقاء". كان أنيقًا.. يضعُ سيجارةً بنيةً فى فمه، ينفخُ دخانها لى عبر الهواء كأنّها قُبلة تتشكل على هيئة سحابةٍ بيضاء تُظلنى، تلسعُ خدى كقُبلةِ مراهق، أمرر أصابعى، أتلمّسها، أحاول أن أزيل آثارها عن وجهى، تطلعت فى خجلٍ إلى مروة كأننى أسألها إن كانت هناك آثار على وجنتىّ، تراجعتُ حتى لا تجعلها مادةً لسخريتها اللاذعة. أشمُّ أنفاسه مع دفعات الدخان المتحولق حولى. مروة لاحظت، قالت لى "هنيئًا لك.. إنّه وسيم.. يُشبه زاك إيفرون بالضبط". شيء ما جعلنى أقف، أطلب من مروة أن تهم سريعًا لنغادر الكافيه، صرختْ وهى تتناول حقيبتها "مايزال أمامنا ساعة على الأقل قبل أن يحين موعد الحظر ونقابل الذئبين". ضحكتُ.. جذبتها من يدها بقوةٍ، ألقينا النّقود فى كف صبي الكافيه وانصرفنا، كنت أهرب منه طوال الطريق الفارغ من النَّاس والسيارات، نلف بالساعات كى نهرب من السدادات الخرسانية التى وضعها الأمن ليسد بها شوارع عديدة لمنع التظاهر والعنف، سخرتْ صديقتى من هذا الفراغ الذى نعيش فيه، القاهرة التى نعرفها مزدحمة بالنّاس والسيارات، القاهرة المدينة التى لا تنام صارت فارغةً تمامًا، لا أطيق هذا الهدوء، ليست هذه المدينة الفارغة مدينتى التى أعرفها، أشعر بضيق، تُخرج مروة علبة الـ "إل إم" وتسحب واحدةً،

تُشعلها بنار ولَّاعتها النيكل، تنظر لملامحى وأنا أقود الهيونداى مسرعةً كأننى أفر هاربةً من قاطع طريق، تتفرّسنى بمهارة أنثى ذات تجارب..

- كيف تجمعين بين تدخين الشيشة والسيجارة؟ أمرك عجيب يا مروة!

- عادى.. الولد الفنان لن يتركك حتى تقعين فى عشقه.

- مجرد فنان تشكيلى أعجبه وجه امرأة أثار بداخله أحاسيس ستنتهى حتمًا.

- دعيه يرسمكِ كما طلب.

- أكون مجرد موديل؟

- ربما يتطور الأمر ويكون عاشقًا وأنت معشوقته.

أنزلتُ زجاج النافذة على وقع ضحكاتها، تركتُ الهواء يمر مندفعًا ليُطيِّر معه خصلات شعرى، تصرخُ مروة.. لا أبالى وأنا أضغط أكثر على دواسة البنزين، كنت أتابعُ مرآة السيارة، أخشى أن يتبعنى ويعرف مكان شقتى، ربما يتسلق المواسير فى وقتٍ متأخر، سيدخل حينها من شباك المطبخ. ذهبتُ سريعًا لأطمئن، كان شباك المطبخ مفتوحًا، تركته على حاله، سيدلف من الشباك كلصٍّ محترف وسيقتحم غرفة نومى، سيجدنى ملقاةً على ظهرى.. نائمة كعادتى بقميص نومٍ أزرق شفاف، غارقة فى ضوء قرمزى خفيف نتيجة ضوء الأباجورة. أندروير قطعتين مُعلّق على الحامل الخشبي إلى جوار سريرى، عادتى أن أَلُف جسدى بملاءةٍ صفراء وأفرد شعرى على المخدة، أسود بلون الفحم، سيشد حينها الملاءة بنعومةٍ فتنحسرُ دون أن أدرى عن جسدى، سأبدو أمامه مفعمةً بألوان الطيف، سيدوخ كفنانٍ تشكيلى، يتلو تعاويذه على جسدى، أتمرّغ فى سحر أسطورى، لا يتمالك نفسه، وحينها سينتهى الأمر كعادة الأفلام القديمة حين يطبق بكلتا يديه دون أن يدرى.. يريد أن يغلق فمى الذى

تعالى صراخه، أخشى أن أفعل هذا وينتهى المشهد باستسلامى.. وحينها يغرق فى العسل المصفَّى بينما أحملق بجسدى فى سمواتٍ وسمواتٍ لا نهائية.. لا حدود لها، بعدها سأشاهده بعينين شاردتين وهو يشير لى بالسبابة والوسطى علامة النّصر. التشكيلى لا يريد أن يدعنى، يحملق فىّ بعينىّ سكير، لأول مرةٍ أقفُ عاجزةً أمام مفترق طُرق، لا أستطيع الاختيار. المرأة حتمًا ستسير مرغمةً خلف فتاها، وجسدها الحرام فى بلاد الشرق يتأوه من ضراوة نيرانه المتأججة. أعرفُ أننى أردد أفكار مروة عزيز التقدمية وأننى حتمًا سأرضخ وسأمنحه ما يطلبه، سيأتى إلى هنا، سيرسمنى.. ليس وجهى فقط ما يريده التشكيلى، أظنه سيتجرأ أكثر، سيطلب جسدى بأكمله، وربما أرضخ كعادة النّساء عندما يعشقن فتى يشبه "زاك إيفرون" بالضبط فى فيلم "نحن أصدقاء"، ساعتها سيصرخ طوال الليل وهو يقول..

- لن يستطيع رجل أن ينام فى هدوء وإلى جواره امرأة جميلة تشبه "إيما ستون".

(8)

كنت جالسًا فى السيارة الـ "كيا" وإلى جوارى عطية منصور.. ركنتُ السيارة فى الساحة بعيدًا وترجَّلنا حتى مكان السوق العامر بالباعة الذين يصرخون بهستريا على بضاعتهم أمام المارة، نساء ورجال يسيرون فى نشاطٍ يُحدّقون فى كلِّ شيء، السوق اليوم مكتظ بالرواد، الزحام يدفع الأجساد المتراصّة أن تسير فى اتجاه إجبارى، تبادلنا النظرات قبل أن نهمَّ بدخول السوق لنبحث عن الفريسة المناسبة، كلٌّ واحدٍ يعرفُ دوره الذى تدرّب عليه وأتقنه، لحظات القلق تسبقُ التنفيذ، قمنا بهذه المهمة مراتٍ ومرات، ورغم هذا كلما هممنا بمهمةٍ جديدةٍ نشعر بالقلق. اتفقنا على تبادل الإشارات فيما بيننا.. وماذا تعنى كل إشارة، النَّجاح يكمنُ فى دقة التنفيذ وسرعته، بلّورات العرق الخفيفة شعرت بها تسيل فوق جبهتى العريضة، مررت بباطن كفى لأمسحها وأستجمع شجاعتى، رمانى عطية منصور بنظرةٍ حادةٍ، كانت تعنى أننا سنفترق الآن، كلٌّ واحد منَّا سيذهبُ فى طريقٍ وعلىَّ الآن أن أتحدى خوفى وأُتقن دورى، لن يكون دور الكومبارس الثانوي الذى كنت ألعبه هناك فى عيادة الدكتور رمزى أمام جمهور المرضى القليل المستسلم فى إعياء وتوجُّع، هذه المرة سألعبُ دور البطولة على مسرح مكشوف فى الهواء الطلق، لا وجود للحائط الرابع، المكان كله عبارة عن مسرح للممثلين والجمهور فى آنٍ واحد. سيبدو القلق والارتباك عليك فى المرة الأولى فقط، ولكن بعدما تصبح محترفًا مثلى ستتحرك بدقةٍ متناهيةٍ وتتبع تعليمات المخرج.. حيث لكل خطوةٍ يخطوها المرء نحو الهدف

حساب، سأغلق أذنى الآن عن سماع هذا الضجيج الذى يُحدثه الباعة وهم ينادون على بضائعهم بصراخٍ مُزعج، الفصال ومساومات الزبائن مع الباعة، المشاحنات والتشابك بالأيدى أحيانًا، بعض الباعة يُمسكون مكبرات صوت. يختلط كلُّ هذا بأصوات الأغانى التى تندلع من سمّاعات الساوند العالية الموضوعة أمام محلات العصائر، يتقاطعُ كلُّ هذا مع صوت عجوزٍ يدعو النَّاس للتبرّع لإنشاء مسجد. أصمُّ أذنىّ عن كل هذا الضجيج ولا أستمع إلا لصوتى الداخلى، نبضات قلبي تعلو.. تُسرع شيئًا فشيئًا كلما أوشكت المهمةُ على البدء. أجول بنظرى بين الأجساد التى تصطدم بي بحثًا عن الفريسة التى ستظهر حتمًا أمامى رغم كل هذا التزاحم والاختناق. أضع خطتى نحو الهدف الذى مايزال غامضًا لم أحدده بعد. أعرف أن عطية منصور فى مكانٍ ما هنا، يراقبنى لكنَّه لا يظهر إلا فى الوقت المحدد.. حين يبدأ دوره، حتى لا يُفسد الخطة الموضوعة، عطية نفّذ معى هذه الخطة مرات ومرات دون أى خطأ يُذكر، أجاد دوره ببراعةٍ، ولأنّه يعشق المال فقد أغدقت عليه أميرة الفايد بسخاءٍ، صار بارعًا ولم أكن أتصوره يومًا بهذه المهارة، أذكر حين رشّحته للعمل معى فى هذه المهمة، طلبت أن تراه أميرة الفايد، فى الموعد المحدد حضر عطية بسحنته وملامحه المنفِّرة، بعدما انصرف- لا أنسى يومها- انهالت علىّ أميرة بسيلٍ من الشتائم البذيئة، تمتلك لسانًا لاذعًا، وجدتها منفعلةً، أمسكتْ بكتفىّ بكل عنف ودفعتنى بقبضة يدها إلى الخلف، كدتُ أقع على ظهرى، لم أتوقع من امرأة الفايد أن تكون بهذه القسوة والقوة، تلومنى على سوء اختيارى حين رشحت لها عطية منصور، ليس لتقوّس ظهره قليلا.. ولكن هيئته المبتذلة ورائحة الخمر الرديئة التى يتناولها وتفوح رائحتها من جسده،

عيناه الجاحظتان، ملابسه غير المتناسقة فى ألوانها، لسانه الذى يتدلى من فمه حين يتحدث، هيئته كلها لم تسترح لها أميرة، وأمام إصرارى على وجوده هدأتْ، وحين حضرت أنجيلا طلبتْ اسبرسو وطلبتْ لى نسكافية، أخذت أشرح لها وجهة نظرى والسبب وراء اقتناعى بهذا الرجل.. لأن دوره يتطلب رجلاً يثق فيه النَّاس حين يُرشدهم، وملامحه التى تُشبه هؤلاء النَّاس تجعله مُصدَّقًا عندهم. لا أنسى قبل أن نبدأ المهمة، أصرَّت أميرة أن تأخذنى معها إلى الفندق الذى تُقيم فيه أحيانًا لتضمن حريتها بعيدًا عن أصدقائها، وربما لتهرب من زحمة الحياة، شيء ما يعكر صفو تلك المرأة الجميلة بحضورها الطاغى، سرتُ خلفها وأنا أعلم أن رجالاً قبلى قد ساروا خلفها، لا أعرف مصيرهم، ربما الموت أو السجن أو القتل، لكنَّها تمتلك ذلك السر الغامض، السحر الذى يُدخلك إلى ملكوتها، تتحدثُ كثيرًا فى السياسة عبر هاتفها، تتحدث بلغةٍ حازمةٍ حينًا.. وناعمة أحيانًا، تتململ من السياسيين وحين أسألها تقول "ملعونة السياسة.. لا تنزلق إليها يا ونايسي ولا تتحدث فيها". تجرّأت وصارحتها ذات يوم بأننى لا أفهم العلاقة التى تربطها بالدكتور رمزى، كانت ردة فعلها غايةً فى السخرية، خلعتْ فردة من حذائها ذى الكعب العالى المدبب ورمتنى بها.. لولا أننى انحنيت سريعًا لكنتُ الآن فى مستشفى قصر العينى بجرحٍ قطعىّ عميقٍ فى الجبهة.. ربما يحتاج إلى خياطة أربع غرز. أطلقت ضحكةً مدويةً حين قالت لى إنها ترى رمزى مجرد رجل عادى، ربما يملك مالاً أو قد يكون طبيبًا ناجحًا لكنَّه لا يملك الشيء الثمين.. وهو الإبداع وتجاوز الآخرين، قالت لى يومها إنها تهوى رجلاً يمتلك المغامرة وروح الإبداع والتقمُّص والخروج عن المألوف، علّمتنى أميرة الفايد أن الحياة لا تهب جوهرها وسرها

للبسطاء الطيبين الذين يعيشون ويتزوجون وينجبون ويؤمنون بالخير والفضيلة، هؤلاء مجرد أنتيكاتٍ بشريةٍ لا حياة فيها، أنتيكات تُقدّر قيمتها فيما مر عليها من زمنٍ فقط، قيمتها فى ماضيها. قالت لى إن القيم ليست مطلقةً كما نظن.. فالخير نسبي والشر أيضًا ليس مطلقًا، الطيبون هم مَنْ يرون الحياة من الخارج.. والعباقرة هم مَنْ يرونها من الداخل وحتمًا سيصلون إلى جوهرها يومًا وسيفوزون بها.

قلتُ لها: لا أفهم.. معقول لا يوجد حد فاصل بين الخير والشر؟!

ضحكتْ حتى ظهرتْ أسنانها اللامعة أمامى كصفَّين من اللؤلؤ الخالص وراحت تشرح لى ما لم أستطع فهمه إلى الآن، كانت تتحدثُ يومها عن أن البشر هم من يضعون تلك القيم التى تتسع وتضيق حسب الأهواء، قالت "خُلق القانون لكى يُخرق". أعترف أننى على يد أميرة الفايد صرتُ شخصًا آخر، أعطتنى كتبًا كثيرةً وشرحت لى أفكارها، وجدتُ صدى داخلي يدفعنى لأتبعها، كنتُ قبلها أخشى التحدث فى الماضي، الماضي لا يحمل لى غير الألم والأسى والفضيحة، لكننى ضبطت نفسي وأنا أحكى لها طائعًا كيف سرقت كيس النقود من جامع الونايسة، وقعتْ يومها على السجادة من الضحك، لا أعرف لماذا حكيتُ لها عن فعلتى التى كنتُ أواريها خجلاً عن النَّاس جميعا؟ لماذا كشفت سوءتى أمامها وصرتُ عاريًا؟ حكيتُ لها كيف اكتشف شيخ الجامع فعلتى حين وجدوا الحُمّص الذى تسرب من جيبي، ظلَّ صوت ضحكاتها يتعالى حتى ظننتها مخمورةً، شعرتُ بخيبة الأمل. اقتربت أميرة منِّى حتى رأيت الممر الضيق الذى يفصلُ ما بين النهدين الرابضين تحت حمالة صدر زرقاء، رفعتْ بكفها رأسى التى مالت عليهما.. وحدقت فى عينى وقالت..

- سوف أعلمك كيف لا تترك الحُمّص يتسرب من جيبك مرةً ثانيةً وتنكشف فعلتك.

لم أكن أعرف ساعتها أن مصيرى سيرتبط بهذه المرأة التى سكبت فى روحى توهجها ومنحتنى مكانةً لم أكن أصل إليها بدونها، امرأة تحار فى فهمها، هل هى شريرة أم خيِّرة؟ اختلطت المفاهيم وغاب عن عقلى الحد الفاصل بينهما، تُرى ما الشر؟ ما كينونته؟ أن تقتل.. أن تسرق.. أن تكذب مثلا؟ أدركت أنه لا شيء مطلق فى هذا العالم، ورأيت كيف أن شيوخًا بأذقانٍ طويلةٍ وجلابيب قصيرةٍ يطرقون بابها ويلجأون إليها، يدور بينهم نقاش طويل، أتابعه ولكنى لا أفهم شيئًا، كلُّ ما أعرفه أنهم يخرجون وهم يضعون أملهم على أميرة الفايد، تُرى ما علاقة امرأة مثل الفايد برجال دينٍ؟ حين سألتها مالت برقبتها حتى وصلت بفمها إلى أذنى وأسرَّت "هم ليسوا رجال دين، هم رجال سياسة يريدون أن تسقط الدولة فى حجورهم البيضاء". اندهشتُ وقلتُ خائفا "وهل ستسقط الدولة؟". ضغطت على شفتيها وسكتتْ، أردتُ أن أستزيد منها، تركتنى فى جهلى وسارت كما قالت لى إلى حمّامها لتأخذ شاور. تصعد هى سُلّمها..ترتقي سُلّمةً سُلّمةً وأنا أتابعها واقفًا كعمود كهرباء، أنظر إليها متأوهًا وهى تصعد الدرج بجسد مومسٍ وحكمة فيلسوف.. النّار والنّور معًا فى آتون واحد. حكتْ لى ذات يوم عن بنت صغيرة ذات ضفيرتين على ظهرها كانت تسير وهى تمسك فى طريقها لمدرستها مجموعةً من الكتب تشدها بالقرب من نهديها بخجلٍ لتخفى تكورهما، ترتدى الجورب الأبيض الطويل الذى يصل إلى ركبتيها، حكتْ عن المنزل القديم الذى كانت تعيش فيه مع والدتها بعد أن سافر أبوها إلى فرنسا ولم يعد، الأم التى ظلّت دموعها تسيل سنوات وسنوات حتى يئسَتْ

من عودة الغائب، حدثتنى عن سنواتها الأولى حيث الفقر والحرمان، وكيف أنفقت أمها كل ما ورثته من أجل تعليمها حتى وصلت إلى كلية الطب، هناك تعرَّفت على سامح زميلها فى الكلية، خطف منها أول قُبلةٍ على وجنتها يوم عيد ميلادها وكانت أمها فى المطبخ.. ثم توالت قبلاته. بعدها حكت لى أن سامح أنور هو من علَّمها وأفهمها جوهر هذه الحياة، وقالت وهى تبكى "ثم تركنى وحيدةً، خذلنى وابتعد، اختار أن يرحل ويموت تاركا أميرة بلا سند بعد أن علَّمها أن هناك عالمًا آخر لا نعرفه، سنصل إليه حتمًا، وصولنا إليه مرهون بمشيئة الرب لا مشيئتنا". الفتاة الوحيدة فى هذا العالم بلا أب ولا حبيب، سوف تختار حياتها هذه المرة ولن تكون قاربًا يحمله الموج كيفما يشاء بل ستكون هى الموج، قرأت كثيرًا فى الخير والشر ووجدته نسبيًّا، فما يكون خيرًا للبعض ربما يكون شرًّا للبعض الآخر، الحرب التى تُوجد المنتصر المنتشي وتُوجد أيضًا المهزوم المنكسر.

خرجتُ من شرودى، مضيت فى السوق المزدحم أتامل النَّاس حتى عثرت على فريستى، تفحَّصتها جيدًا، كانت امرأة فى الأربعين ترتدى عباءة سوداء وتلف حول شعرها طرحةً زرقاء بخيوط مُذهَّبة.. تتدلى منها شراشيب تغطى صدرها، كانت تشترى من بائع العطور زجاجة برفان صناعة محلية، البائع يرش على ظهر يدها قليلاً من العطر ويمدها لتقترب من أنفها لتشمه، ثم تهز رأسها بالنفى فيعيد البائع الزجاجة ويأتى بأخرى، ثم يُعيد الكرَّة مرات، كان الصبي الصغير الذى يُمسك بأصابعها قد تخلَّى عن كف أمه، تلك هى اللحظة المناسبة للانقضاض على الفريسة، تراجعت وتمهَّلت انتظارًا لمجيء مزيد من النِّسوة حول بائع العطور، لحظات وبدأ توافد النسوة حولها، اقتربت فتاة جامعية

تُمسك بعض الكتب وتعقد شعرها على هيئة ذيل حصان، ترتدى الجينز الأزرق وتطلى أظارها بطلاء بُنى غامق، مؤخرتها المشدودة مع دوران قماش الجنز الضيق يبرز مؤخرة فاتنة، صرفتُ نظرى سريعًا وعدت إلى المراقبة انتظارًا للحظة الفعل، الفتاة الجامعية كانت هى الأخرى تبحث عن عطرها، انشغلت المرأة أكثر حين التفَّ النسوة حولها وبدأت تعرض العطر على أنوفهم جميعًا وكلٌّ منهن تُبدى رأيها، الفتاة الجامعية تُبدى امتعاضًا حين تنحنى لتشم البرفان.. فيعيد البائع رش الآخر دون ملل. فى هذه اللحظة كانت المرأة قد انشغلت عن صغيرها تمامًا، أدركت أننى أمام لحظةٍ ربما لن تتكرر وعلىَّ أن أنتهزها. اتصلتُ سريعًا بهاتف عطية، أخبرته ببدء التنفيذ ليكون مستعدًا، وانطلقت كالسهم وأنا أعلم أن عطية فى مكانٍ ما قريبًا منِّى، يرانى الآن ويتابعنى.. وفى اللحظة المناسبة سيتحرك، هى خطة موضوعة ومحفوظة، لم يحدث أن وقع خطأ أبدًا، ظللت أقترب بخطواتٍ ثابتةٍ حتى وقفت إلى جوار المرأة وصغيرها، بخفّةٍ مددت يدى إلى كف الصغير.. ألتقطها، يحسبها كف أمه، جذبت يده برفق فتحرك معى بينما كانت الأم تبحث عن عطرها، انطلقتُ وبكفِّى الطفل الصغير أعدو بعيدًا عن الزحام، حاول الصبيُّ التملص من كفّى، أدرك فى لحظةٍ أنها خشنة، كانت قبضتى قوية فلم يستطع، صرخ صراخًا مكتومًا حين بدأ يتحسسها بكفّه الأخرى.. لم تكن ناعمةً ككف أمه، كف غريبة قبضت بعنف على أصابعه الطرية ولن تدعها، يحاولُ الآن جاهدًا أن يُخلِّص كفه الصغير من قبضتى المحكمة بقوة، محاولات الصغير البائسة لا تتوقف وهو محشور أسفل أجساد المارة بالشارع المزدحم.. وأنا أجذب جسده الخفيف، محاولة التخلص من قبضتى القوية لا تتوقف، أسمع أنينه المكتوم، لم يدرك بعد الخطر

الذى يحدق به حتى يطلق صرخة مدوية تُنبّه المارة، مقاومته الهزيلة لن تُنجيه، كانت قبضتى تزداد حول أصابعه، ابتعدت عن بائع العطور سريعًا.. وهنا كانت الخطة ألا أتباطأ وعلىَّ الإسراع إلى الـ "كيا" لإخفاء الصبي، جذبت الولد ورفعته، وضعته فى حضنى كأننى والده، ولما اكتشف الولد الخدعة بعدما رآنى راح يصرخ طالبًا أمه، أخذت أداعبه حتى لا يلفت صراخه انتباه أحد المارة فيوقفنى، أُقبِّله وأعده بالحلوى واللعب بصوتٍ عالٍ لأبيِّن للمارة فى السوق أننى أبوه فعلا وفى انتظار أمه، لا يكف الطفلُ عن الصراخ والعويل والبكاء، أدركت خطورة الموقف، حملته وانطلقت كالسهم أمر بين أجساد المارة والزحام، وما هى إلا لحظات وبدأ يتناهى إلى سمعى صوت صرخات الأم عند دكان بائع العطور، اعتدت صراخ الأمهات الغافلات بعد أن يفقدن أولادهنَّ، تنادى على صغيرها بحُرقةٍ، خطواتى تسابق الزمن إلى الـ "كيا" لأدفس الصبي فى الشنطة، أعرف ما يدور الآن حول المرأة الأربعينية، سيدور حولها حديث مُطمئن من النَّسوة الملتفَّات حولها، سيطمئنونها إلى أنَّ صبيَّها ربما يلعب هنا أو هناك وستجده حالاً، حين أبطأتُ ذات مرة وصوَّبت نظرى فى عين إحداهنَّ ممن أخذت منها صبيَّها ولذت بالفرار.. دون أن أقصد تعمقتُ فى النَّظر إلى عينيها ورأيت حزنًا بحجم جبل.. وكوَّتين من الضياع.. وألمًا بحجم السماء.. وسحابة سوداء تستقر فى عينيها، حين تيأس المرأة من البحث وتتأكد شكوكها بأن هناك من خطف الصبي ستصرخ.. ستسمع صراخها الوحوش البرية، ليس أمامى سوى الفرار، الفرار بأقصى سرعة، أطلق لساقيّ العنان، بعد دقائق سيبدأ النَّاس فى مساعدتها للبحث عن الخاطف اللعين، سيدركوننى إن تحركوا بالسرعة المطلوبة. هنا يأتى دور عطية منصور حيث يظهر فجأةً

ويسأل المرأة عن مواصفات ابنها، وفى هذه اللحظة سيقول بصوتٍ عالٍ إنَّه شاهد رجلاً يحمل طفلاً بتلك المواصفات يسير فى هذا الاتجاه ويُسرع الخطى، سيشير لهم على الاتجاه الخطأ.. عكس اتجاه سير الـ "كيا". سيشكره النَّاس لطيبة قلبه وربما يردد دعاءً على خاطفى الأطفال معدومى الضمير، ستسارع المرأة الأربعينية فى السير إلى الاتجاه الذى أشار عطية منصور بسبابته إليه وسيمضي خلفها كثيرون، وربما تلقى الفتاة الجامعية كتبها التى تحتضنها وتمضى لتبحث هى الأخرى عن الصبي. كبار السن سيكتفون بالدعاء على خاطف الطفل والدعاء بالخير لعطية منصور الذى أرشد المرأة لمكان طفلها، سيسارع عطية منصور للحاق بي نحو الـ "كيا"، سأكون قد أودعت الصبي شنطة السيارة بعد أن أمرر أمام أنفه رائحة مُخدِّر يسيرة تجعله ينام فى هدوء، سأقود السيارة ويشعل عطية سيجارته وهو جالس إلى جوارى يحكى لى كيف استطاع أن يخدع المرأة الأربعينية والملتفِّين حولها.. وهو يتقمص دور الرجل العجوز الذى رأى خاطف الصبي ودلَّهم على طريق سيره، سنضحك ضحكات عالية بينما الهواء المندفع من شباك الـ "كيا" يلفح وجوهنا المنتشية بانتصارنا بهذا القنص الثمين، أسمع رنين هاتفى، كانت أميرة، أفتح الهاتف سريعًا وأخبرها أننا فى الـ "كيا"، تلك كانت الكلمة المفتاح التى ستعرف أميرة حين أقولها أننا قد أنهينا مهمتنا بنجاح، مهمة القنص. تذكّرتُ كلمات أميرة الفايد عن ذلك الشعور بالانتشاء الذى ينتاب الأسد حين يتغلَّب على فريسته، هذا الشعور الذى سيملأه بنشوةِ النَّصر ربما يفوق شعوره بالجوع وحاجته إلى الطعام، الأسد وهو يشحذ همَّته لقنص فريسة جديدة لا يبحث عن الطعام كما يظن المخدوعون.. بل يبحث عن شعور غامض يكتنفه،

شعور بالسعادة الغامرة.. أو ربما بالرقي والرفعة، هذا الشعور لا يدركه ولا يعرفه سوى المنتصرين.. الفائزين بلحظة الرقي لتسمو فوق البشر، هذا الشعور يخالجنى كلما عدتُ بالـ "كيا" منتشيًا بالانتصار، هامتى مرفوعة، أضغط على دواسة البنزين ليقترب العداد من المائتي كيلومتر ويشتد اندفاع الهواء من النَّافذة منتشيًا بصيدى الذى أغلقت عليه شنطة الـ "كيا". تذكرتُ مصيدة فتحى القبّانى الفارغة التى يجلس إلى جوارها متخفّيًا ينتظرُ طوال النَّهار حتى يقع أرنب برّى فى أسرها، كانت قسمات وجه فتحى تشرق حين يجد الفريسة تعافر وهى تحاول الخروج من المصيدة، ما الفرق بين مصيدة فتحى القبانى وشنطة الـ "كيا"؟ ستقبع داخل كليهما فريسة. الجماعات التى تدَّعى التديُّن وتطلق لحاها تلقي بشباكها على فتيان وفتيات الجامعة، صبايا تتكور نهودهم وتستدير مؤخراتهم.. وصبيان تختط شواربهم وتنبت لحاهم سيهرعون نحو الشِّباك، بعضهم سيسقط، الفرائس ربما تعافر حينًا لكنها حتمًا ستسقط، وحينها سيقتلون ويحرقون باسم الله.. ويسرقون باسمه أيضًا، وهم لا يعرفون أنهم مجرد قتلة ولصوص، وأن حُب الله لن يُنال بالقتل والسرقة. سنوات مرَّت وأنا أتنقَّل ومعى عطية من سوق السيدة زينب إلى الحسين.. ومن سوق الجمعة بإمبابة إلى سوق وكالة البلح، أولاد وبنات لا أعرف مصير أى أحدٍ منهم، كان دورى فقط أن أحملهم إلى الجراج وأنصرف، لم أسأل أميرة.. وهى لم تخبرنى، لا أعرف لماذا لم أسأل يومًا عن مصير هؤلاء الأولاد الذين نحملهم إليها؟ ربما يكون القتل كما قال لى عطية ذات يوم وهو يشد دخان الشيشة على القهوة، قال لى يومها "ربما يقتلون هؤلاء الأطفال أو يسرقون أعضاءهم، أو ربما يحملونهم إلى خارج البلاد لأمر لا نعرفه". شدَّ بعدها نفسًا

عميقًا ونفثه فى وجهى، لم يكن يشغله سوى الحصول على المال الذى ينفقه على الكيف والنَّساء فى البارات والملاهى الشعبية، أما أنا فكان يكفينى رضا أميرة الفايد. نضحك حين تُذكّرنى بمشهدى وأنا ألعب دور الأفندى المتعجرف فى عيادة الدكتور رمزى، قالت لى إنها رغم فشلى فى أداء الدور لكنها رأت داخلى شيئًا جذبها ناحيتى، قالت "ربما لمعة عينيك.. فراستك، إصرارك على ملاحقتى". ثم تحركتْ حتى واجهتنى.. "قررتُ أن أجعلك لى وحدى.. اسمع حين أرضى عنك سترى حياةً أخرى لم ترها ولم تحلم بها، أنت حصانى الذى أراهن عليه فى السباق القادم". حكت لى أن الأيام القادمة هى الأعنف، حيث البشر تائهون بلا هدف، سيتملكهم اليأس أمام التحوّلات الكبرى والفراغ الأمنى وبرامج التوك شو. يبدو أن كلام أميرة يتحقق، اليوم على قهوة شعبان أخذ عطية يردد كلامًا عن القاهرة التى لم يعرفها من قبل.. حين نزل الشباب إلى الشارع وانضم إليهم كثيرون، القاهرة يأتيها الآن ناس كثيرون مقصدهم الميدان، وقائع الخطف والقتل والسرقات كثيرة لا تحصى.. بعد أن اختفت الشرطة، وعربات الجيش تجول فى الشوارع ليل نهار، الانفلات الأمنى وغياب الشرطة الذى جعل الأمر سهلا عن ذى قبل، منذ يناير ولا وجود للشرطة فى الشوارع، ما الذى أصاب القاهرة؟ كان عطية منصور يردد "الوافدون صاروا بالآلاف، إنهم ينامون فى الميدان الواسع ويقضون حوائجهم فى جامع عمر مكرم.. ماذا يريدون؟". سكتنا.

قالت لى ونحن هناك فى أعلى نقطة فى السماء، كنا داخل المِنطاد، ركوب المنطاد هو الهواية- ربما الهواية الوحيدة- التى تُحبها أميرة، تدرَّبت حتى حصلت على رخصة قيادة منطاد. أتذكَّر عندما نفَّذت لها أول عملية قنص وعدتُ إليها بالفريسة فى شنطة الـ "كيا"، فى اليوم

التالى هاتفتنى وطلبت منِّى أن أحجز تذكرة قطار إلى الأقصر.. وفعلتْ، لم أفهم.. لكن حين نزلت فى محطة قطار الأقصر وجدتُ سيارةً فى انتظارى، أخذنى السائق وذهب بي إلى فندق إيزيس، وبعد عدة ساعات قضيتها فى الفندق جاءنى صوتها عبر الهاتف تطلبنى، لبَّيتُ سريعًا. عند باب الفندق وجدتها فى السيارة، اصطحبتنى معها، كانت المرة الأولى، كلما ارتفع المنطاد علت صيحاتى وشهقاتى خوفًا ورعبًا، تضحك أميرة بينما كنت غارقًا فى العرق ونبضات قلبي تدق بعنف، إنها الفوبيا من المرتفعات، لم أكن أعرف حتى أخبرتنى وهى تضحك، قالت لى يومها "عندما يستوى فى السماء ستكون قد ارتفعت بالقدر الذى يجعلك ترى كل ما هو أسفل صغيرًا وحقيرًا، هنا وفى هذا الارتفاع ستعتلى كالصقر لترى فريستك مسكينةً ذليلة وضعيفة، كلما ارتفعتَ صغُرت فريستك فى عينيك، وكلما اكتشفتَ مناطق ضعفها أدركت مدى قوتك". يا لهذه المرأة التى تمتلك سحر الأنوثة بما يجعلك تُلحُّ فى الاقتراب منها وتذوق شفتيها، كيف سيكون طعمهما وأنت تلمسهما برفق؟ حتمًا سيكون هناك فارق كبير بين شفتى سعاد ممرضة الدكتور رمزى وبين هاتين الشفتين اللتين تقطران بالعسل، كيف ستكون أميرة الفايد فريستك وتُخضعها لإرادتك؟ فى المنطاد لا يفصلك عنها سوى نصف متر، نصف متر وتكون بين ذراعيك تأخذ منها ما تشتهيه. منذ متى وأنت متردد، تقف بعيدً؟ هل يمكنك أن تباغتها بفعلتك أم عليك أن تصارحها؟ بدَت حين فكَّت قيد شعرها فى الهواء كأنها تُطلق سراحه ليطير خلفها، ترفع ذراعيها وتحركهما كأنها تطير مثل طائر حر فى السماء، أغمضتْ عينيها وسكتتْ عن الكلام، كأنها نسيتْ حضورى، الرغبة اشتعلت داخلى وأنا أراها مغمضة العينين وشعرها يحمله الهواء للبعيد وذراعيها يحلقان

كجناحين، كيف تخيّلت نفسها الآن مثل طائر فى عنان السماء، صقر جارح يبحث عن فريسته، صقر يمتلك الجمال والقوة معًا، ها هى أميرة الفايد أمامى بكل أنوثتها وجمالها وروعتها، تقف فى لهفةٍ تنتظر قرارك.أى ضعف ينتابك أمامها فتقعد كأنَّك نصف رجل؟ قد تكون المسافة التى تفصلها عنك الآن نصف متر لكنَّ المسافة بينكما كبيرة، هى المعلمة والفيلسوفة.. وأنت مجرد تلميذ نجيب ومطيع كما تناديك دائمًا. كيف سترفع تلك الحواجز التى تعرقل اقترابك منها؟ هى تملك الذكاء كى تعرف ما أفكر به الآن وأنا إلى جوارها فى المنطاد بعيدًا عن النَّاس والأرض.

أفاقتْ وأنا أُحدِّث نفسي، فتحت عينيها ونظرت إلى وجهى، تفحَّصته وابتسمت..

- لا تفكر فى هذا يا جابر، جسدى ملكى ولن أعطيه لرجل، لن أمنعك من النظر إليه، لن أمنعك من أن تتخيلنى فى أى وضع تتمنّاه، لكن حذار من أن تخلط بين الخيال والواقع.

سقطتْ كلُّ ملامح وجهى خجلاً.

حين امتلأ ميدان التحرير عن آخره هاتفتنى وهى تضحك، لم أسمع رنين ضحكاتها العالية من قبل، كانت ساحرةً، طلبت منِّى يومها أن أذهب معها إلى الميدان وأسوق لها الـ "بي إم"، وفى الطريق هاتفت آخر وقالت له بالحرف "لن نترك الميدان الليلة.. معى حارسي الأمين". وأدارت وجهها ناحينى وأكملت "لا تخف.. الليلة موعدنا".

فى الميدان كانت الحشود تُغطى الأسفلت، وطوابير الحمَّامات المتجهة ناحية مسجد عمر مكرم طويلة وممتدة. كانت تعرف طريقها وسط هذا الزحام الشديد والتدافع.. مما جلعنى أتقدم أمامها لأفسح لها

التصاق الأجساد. لماذا أتوا إلى هنا؟

لم ترد على تساؤلاتى المنهمرة. أعرف أنه حديث السياسة لكنها تعلم أن مثلى لا ينشغل بهذه الأمور، كنت ساعتها أبحث لى عن سيجارة ملفوفة تزيل صداع رأسي.. أو قرص ترامادول.

(9)

بدأتُ أبحث فى كل مكانٍ بشقة أسيل عن شيءٍ أعرف منّه كُنه هذه المرأة التى أوقعنى حظى فى قبضتها، صرتُ أسيرًا لديها تفعلُ بي ما تشاءُ، منتهزةً فرصة هروبي خوفًا من أن أقع فى قبضة الأمن.. بعد أن لُذتُ بالفرار أثناء فض التظاهرة. لن يفلح إنكارى مهما حاولت، المصفحات تملأ الشوارع، اللجان الشعبية تُوقفك فى أى شارع أو زقاق ضيق وتسألك ذات الأسئلة التى أجبت عنها منذ دقائق فى شارعٍ مجاور، سيروق لذئبٍ مثلى أن تمتلئ الغابة بالذئاب. عطية منصور حكى لى أنه اصطحب مجموعةً من الصبية ونهبوا المول الكبير فى أكتوبر، لم يتركوا شيئًا.. حتى مراوح السقف وصنابير الحمّامات.

أميرة الفايد انتقلت إلى "فيلا" فى التجمع بصحبة أنجيلا.. الخادمة الفلبينية، جسدها نحيل، ذات تقاسيم وجه مريحة، ابتسامتها الرقيقة، ثنايا جسدها لا تشى بأنوثةٍ لافتةٍ، حتى ملابسها مجرد بنطلون جينز وبلوزة بيضاء، لها عينان ضيقتان، ولها ردف صغير باهت لا تبدو تقاسيمه، تُقدّم لى فنجان النسكافية.. وبلكنةٍ عربيةٍ مكسرة تقول "تفضل سيدى". كأننى داخل فيلم أجنبي مدبلج. أميرة لا تعاملها كخادمةٍ، تبادل النّظرات بينهما لافت لانتباهى، النّظرات لغةٌ مشتركة لا يدركها سواهما، اللافت أيضًا أن شعر أنجيلا طويل.. يصل إلى منتصف ظهرها. أحضرت أميرة للفيلا الجديدة بالتجمع حُراسًا أشداء بأسلحةٍ وكلاب حراسة مُدرَّبة.

أخشى أن أنسى، طلبت منِّى أسيل أن أنظف لها الشقة قبل أن تغادر، قلت لنفسي "هذه فرصتى، سأعرف عنها كلَّ شيءٍ الآن". توجَّهتُ ناحية دولابها، فتّشتُ كلّ ملابسها وأدراجها، لم أجد شيئًا مُهمًّا، عُلب مكياج

مُلقاة بعشوائيةٍ تنم عن فتاةٍ لا تهتم كثيرًا بشكلها كأنثى. رغم ملامح أسيل الجادة إلا أنها تمتلك جمالاً مختلفًا عن سعاد الممرضة، وحتى عن جمال أميرة الفايد. وجدتُ في رحلة بحثي سلاسل مفاتيح كثيرة وبعض الإكسسوارات المهملة.. وفردتي حذاء بلونين مختلفين.. وكراسة ممتلئة بالحسابات وبعض إيصالات تحصيل لرسوم حكومية. ربما تحضر أسيل في أي وقت، يجبُ أن أُنجز المهمة بسرعة، توجهتُ إلى المكتبة الصغيرة، فحصتها ظاهريًّا وتوقعتُ ألا أجد شيئًا، لكنني لمحت كتابًا عن الفنون والرسم مدون عليه إهداء من شخص يدعى "أحمد بسيط"، كلمات الإهداء تنم عن علاقةٍ خاصةٍ تجمعه بـ "أسيل"، الكتاب موضوع رأسيًّا وفي مكان ظاهر ينم عن اهتمام أسيل به، مجموعة من أسطوانات أغاني لأم كلثوم وفيروز وفايزة أحمد، لمحت خلف المكتبة برواز لوحةٍ ملتصق بالحائط، أخذني الفضول.. ربما أجد شيئًا، تحركت سريعًا.. تسلقتُ المكتبة ومددتُ يدي بصعوبةٍ بالغةٍ.. استطعتُ الإمساك بالبرواز، جذبته للخارج برفقٍ، لم يكن صعبًا على مثلي أن يصل إلى هذه اللوحة المهملة.. أو أن أسيل أرادت إخفاءها عمدًا، لم ترد التخلص منها، على أية حال سأرى. حاولتُ بحرصٍ أن أُخرج اللوحة بعنايةٍ حتى لا يصيبها أذى، بحدسي تأكدتُ أن وضعها بهذه الطريقة ربما يشي بأهميتها، كميّة الأتربة تغطي رسومات اللوحة وألوانها تمامًا، لا اهتمام لي بالرسم.. ولكنه الفضول، حين بدا خلف الأتربة وجه يُشبه وجه أسيل اشتد فضولي أكثر، هرعتُ إلى المطبخ.. جلبت فوطة صفراء وأزلت التراب الناعم برفق، شيئًا فشيئًا بدأت المفاجأة تشل حركتي. أمعقول ما أراه الآن؟! جسد لامرأةٍ عاريةٍ إلا من خرقة صغيرة تلتفُّ حول خصرها تزيدها إثارةً، كانت ممددةً على كنبة الأنتريه، تسند ذقنها على مسند الكنبة وتمد جسدها العاري على امتدادها، هذه المرأة ليست أسيل.. ربما تُشبهها، دققت النّظر.. لم

أفهم، اتسعت دهشتنى وتراجعت للخلف حتى كدتُ أقع على ظهرى، غير معقول.. إنّها تُشبه أميرة الفايد إلى حدٍّ كبير. أكملت إزالة الأتربة عن اللوحة، الخيوط بدأت تتضح، الوجه يُشبه أسيل والجسد يُشبه أميرة الفايد، أخشى أن تكون بقايا البيرة التى احتسيتها قد لعبت برأسي. اللوحة مجرد خيال فنان.. ربما استحضر صورتها من خياله كما كنتُ أفعل مع أميرة الفايد عندما فشلتْ محاولاتى فى إخضاع جسدها لى، تمنَّعت وعاملتنى كخادم، دأبتُ على استحضارها فى خيالى كنوعٍ من العقاب لها، كنت أراها بكامل أنوثتها وهى تجلس فى سرير نومها ترتدى قميص نوم أزرق شفاف يعلو ركبتيها، ويبدو من فتحة صدر القميص الواسعة دوران النهدين المتكوّرين بعنايةٍ، أراها تتحرك فى غرفةِ نومها، وفى بعض الأحيان كنتُ أجعلها تتخلص من قميص نومها فتبدو أجمل. تذكّرتُ وأنا أطالع اللوحة حين أجلستنى أميرة الفايد إلى جوارها ذات يوم فى مسرح دار الأوبرا أستمع إلى صيحات المغنين، أدركت أن عالمها أوسع من عالمى، أجلس كقطعةٍ من حجرٍ صلد، أتابع أوراك راقصات البالية، تقرصنى فى جنبي وهى تهمس..

- اطرد هواجس شياطينك يا ونايسي واستمتع بالفن، الفن فقط، الجسد العارى محض جمال.

رأتنى أغرسُ عينيّ فى أجساد الراقصات العارية، كنتُ مشدوهًا بقوامهن الرشيق وليونة أرجلهن، وكيف يسرن ببراعةٍ على أطراف أصابع أقدامهن الأمامية، مسرح مهيب. ما الذى يدعو أميرة إلى أن تحضر شخصًا مثلى إلى هنا؟ عندما وجدتنى مستغرقًا فى أجسادهنّ العارية.. قالت لى يومها كلامًا لم أفهمه عن تواريخ العري. لا أعرف لماذا تحدثتْ عن الكتب المقدسة.. عن آدم وحواء، وقالتْ إن آدم وحواء كانا عاريين كترجمةٍ حرفيةٍ لقصة سقوطهما من علياء جنات عدن، مثَّلت لى بالحضارة الغربية

التى سمحت أن يُرسم المسيح عاريًا على الصليب لإظهار معاناة الإنسان الجسدية، دعتني يومها محاولةً تهذيبي وجعلى رجلا متحضرًا، ستلقي نظرةً عابرةً على فتيات البالية على مسرح الأوبرا وتحكى لى عن فن العُرى، وقالت إنّه فن للتعبير عن المثل العُليا وإبراز جمال الصفات البشرية، وسألتنى ببجاحة إن كنت أعرف الفن اليوناني القديم الذى استعمل عُرى الجسد كثيرًا، أشرت لها برأسى علامةً النفى، لم أكن أعرف شيئًا عن أى فن. ابتسمت لسذاجتى وأكملت كأنّها تكلم شخصًا آخر غيري لديه اهتمام بتفاصيل الفن والثقافة، استرسلت ولم أستطع إيقافها، قالت إن هذا الفن- تقصد فن الجسد- توقف فترةً طويلةً ثم عاد للظهور مرةً أخرى في عصر "النهضة". ولما رأتنى عاجزًا عن مجاراة أفكارها قامت وأخذتنى من يدى، سرنا فى الكوريدور.. ثم عرجت بي عند حجرة واسعة مليئة باللوحات الفنية، أوقفتنى فجأةً أمام لوحة لفتاة عاريةٍ تمامًا، كان جرس هاتفها يعلو، ردّت أميرة بعد أن تركتنى وحيدًا أمام امرأةٍ عارية فى الأوبرا، أتانى صوتها وهى تحادث الطرف الآخر على الهاتف، قالت بصوتٍ خافت "عندما أحضر سأطلعك على كل شيء.. الأمر أشرف على النهاية". كلماتها أحالتنى إلى جسدها، هل كانت تخاطب الدكتور رمزى؟ ربما. هل قالت كلمة دكتور فى نهاية المكالمة؟ كنت منشغلا بالمرأة العارية ولم أنتبه. قالت إنّها ستطلعه على كل شيء، هل تقصد جسدها.. تفاصيله؟ أغلقتْ الهاتف وعادت بهدوئها إلىّ، خرجتُ من شرودى توًّا. قالت وهى تتابع نهمى فى رصد تفاصيل الجسد "إنها ماجا.. المرأة التي رسمها فرانسيسكو دي جويا عارية". الرجال يملكون خيالاً واسعًا فى تصوّر الجميلات، قلتُ لها وأنا أقف أمام لوحة ماجا "إنّها تُشبه أنجلا الفلبينية". سدَّدت لى نظرةً حادةً وانصرفت، تركتنى حائرًا، لا أعرف باب الخروج من الأوبرا. ما الذى جرى وأقلقها فى حديثى عن خادمتها، عطية منصور حكى لى

ذات يوم ونحن جالسين نلعب الطاولة على قهوة شعبان- بعد أن سحب نفسًا عميقًا من مبسم الشيشة وأخرج دخانه على مهلٍ كأنَّه يتلذذ وهو يُفرج عنه ببطءٍ من رئتيه- أنَّه بالأمس استحضر صورة إحدى الممثلات الشهيرات وهو يضاجع إحداى الساقطات التى أحضرها معه من بار جانبي بشارع الأمراء بروض الفرج، حيل الرجال لن تنتهى، لا أنسى صحبة عطية منصور سنوات وسنوات منذ قدومى إلى القاهرة، علّمنى كيف أبيع كل أنواع الحبوب المخدرة.. من الترامادول إلى البسية والفانيليا وأبو صليبة والعرانيس والصراصير.. وتفاح المسمى "كيف الحرامية"، لم أكن أعلم أن لهذه البضاعة كل هؤلاء الزبائن، زبائن من القهوة ومن خارجها، كان يرسلنى فى أحيانٍ كثيرة إلى مناطق راقية مثل روكسي ومصر الجديدة، من شاب قروي بسيط إلى "ديلر". فى الآونة الأخيرة كان يرسلنى إلى زبائنه فى وضح النَّهار، الكلُّ استغل الفراغ الأمنى، لم يعد أحد يخشى شيئًا. بعضهم كان ينفحنى بقشيشًا ويطلب منِّى ألا أخبر عطية حتى لا يستولى عليه، ذهبت إلى شققٍ فاخرةٍ وإلى مسؤولين يعرفون عطية منصور ويُطلقون عليه "الطلق". ذهبتُ إلى أنديةٍ شهيرة، كانت الأبواب تُفتح لى بمجرد أن يعرفوننى.. "الديلر". الأيام الأولى لى فى القاهرة كانت صعبةً ومتعبةً ومرهقةً، حتى استقر بي الحال فى عيادة الدكتور رمزى. تنبّهت لخطورة أن أقف وبيدى هذه اللوحة، ستعرف أسيل ما فعلته إذا حضرت الآن ووجدت هذه اللوحة فى يدى، ربما تفكر فى تسليمى للقوة الأمنية التى ترابط أسفل العمارة، سأصبح فريسةً لهذا الضابط الذى ينتظر كصيادٍ ماهر أن أقع فى شباكه، تحركت بسرعةٍ وأعدتُ اللوحة إلى مكانها خلف المكتبة. كنتُ أخشى المواجهة.. أسيل المرأة الشرسة التى تُمعن فى إذلالى دون جريرةٍ اقترفتها، ستكون أكثر شراسةً، لن آمن ردة فعلها إن عرفت بأمر رؤيتى للوحة التى تخفيها، ربما تمتلك الجمال والشر معًا. قديمًا

كانت الأفلام الأبيض والأسود تقدم الشرير بملامح واضحة تمامًا بحيث لا يصعب على المتفرج أن يتبينه، أحد الحاجبين يكون مرفوعًا.. العين نصف مفتوحة.. والأسنان المدببة والأنف المفلطح، الجبهة العريضة وكركرة ضحكته المميزة. الآن الأشرار يسيرون بيننا بملامح تُشبه ملامح الطيبين. المرأة التى شاهدتها توًّا تبدو فى لوحتها رائقةً مثل ماء صافٍ. حاول عطية منصور أن يخفى حقيقته عن الأمن، دلف إلى الميدان ووقف منتصبًا إلى جوار أحد الخطباء على المسرح العالى كبودى جارد، حارس يحمى الرجل من الملتفّين حوله، لم أصدق فى بادئ الأمر.. وبدأت أخترق الأجساد المتراصة والعيون المتطلعة فى شوق لرؤية الخطيب المفوَّه وهو يحتل مكان الصدارة على المسرح العالى، كان عطية واقفًا يحيط به أتباع الشيخ وهو يدفع الجموع الغفيرة عن الرجل، كل منهم يحاول لمس جلبابه أو تقبيل يده، أو التبرُّك بلمس جسد الخطيب المفوّه الذى ألهب حماس الميدان بحديثه عن كرامات رآها، كانوا يهللون خلفه ويكبِّرون. كنت أتابع شريط ذكرياتى مع عطية، كيف لبائع المخدرات أن يصل إلى هنا؟ ربما يكون تشابه الأصوات وتشابه فى الملامح. مهما حاول عطية التخفِّى فلن يخفى على جابر الونايسي، صاحبته سنوات طويلة، لم نكن صديقين.. ولكننا اقتربنا حتى صرنا ظلين لجسد واحد، تذكّرته وهو يدرِّبنى على بيع الأقراص المخدرة عندما طردنى رجب العجلاتى من دكانه، أصبحت بلا عملٍ ولا دخل، يعطينى أقراص المخدرات لأقوم بتوزيعها مقابل قروش قليلة، بعضٌ ممن كنت أذهب لأبيع لهم الأقراص كان يدعونى لأشاركه ليلته فى التعاطى، يلح فى أن أجلس معه لأتناول معه حبوبه على نفقته، الوحدة بشعة.. وحظر التجوّل يقتل الروح، البشر هم سر السعادة لا المخدر. كنت أندهش فى البداية لهذا السلوك، حتى قال لى "بلبل الشروق" كما كان يُسمى نفسه "المخدرات تحب اللمة". أما "باتع" خفيف الظل..

الساكن فى الحدائق فكان ينتظرنى فى البلكونة بالساعات وهو يهاتفنى كل خمس دقائق ويغضب لتأخرى، وحين يرى ملامح الغضب على وجهى بينما تكون قسمات وجهه متهللةً لحضورى، يقسم علىّ بالطلاق من زوجته منار أن أدخل الشقة، ويطلب من منار أن تُعد لى النسكافيه، يصر أن أجلس معه هو وزوجته، يغيب هو عن الوعى بينما عيناى تتطلعان بنهمٍ إلى جسد منار المترنح وقد انحسر عنه الروب ليُظهر تفاصيله من خلف قميص شفّاف، تُشغِّل منار موسيقى لعمار الشريعى، يدب الحماس فى جسدها المتشبّع بالمخدر، تقف وتلف وسطها بشال قطيفة وتتمايل. الهاتف اللعين يواصل الرنين وعلى شاشته اسم "الطلق".. عطية منصور الذى غضب لتأخرى فى العودة، أجعله صامتًا وأتركه يواصل الرنين.. بينما أتابع تمايل منار وجسدها المشتعل وسط الدخان الكثيف الذى يُطلقه فم زوجها "باتع" مع غيابه عن الوعى. أصحو على رنين الهاتف المتواصل لأجد نفسي بين أحضان منار داخل حجرة نومها، لا أعرف ما الذى جرى، أرتبك وأنا خارج من غرفة النوم، أصطدم به ممددًا فى الصالة غارقًا فى عرق غزير وصوت شخيره يتعالى، ألملم ملابسي المبعثرة فى أرجاء الشقة، أرتديها سريعًا، أعود حاملا حصيلة اليوم، سأصل منتصف الظهيرة، أجده على قهوة شعبان فى بولاق يجلس متأففًا فى انتظارى، يستقبلنى بسيل من الشتائم ويجرى خلفى محاولاً ضربي بعنف، أُفلت من بين يديه ولا يستطيع اللحاق بي، عندما يرى المال تهدأ غضبته، نجلس على القهوة، يطلب لى شايًا ولنفسه قهوةً سادة ونبدأ فى مراجعة الحساب.. بعد أن أكون قد دفست البقشيش فى جيبي بعيدًا عن حسابه. أختلق كذبةً تجعله يخرج من غضبه منِّى ويبتسم، مثلاً سأقول له المرور كان مزدحمًا، أو الحكومة كانت فى المنطقة فانتظرت حتى ترحل، وهكذا كل مرة أتأخر فيها كنتُ أختلق كذبةً. آخر مكان أتصور أن أجد فيه عطية هو هنا.. فى

هذا الميدان. بعد خروجى من السجن لم أعثر عليه، اختفى تمامًا عن حى بولاق، وحين سألت علمت أنه ركب الموجة طمعًا فى الوصول سريًعا.. يا له من ماكر، من تاجر مخدرات وقاطع طريق يقف ليعمل بودى جارد لدى شيخ سلفى، بالتأكيد سيقبض كثيرًا.. أو ربما يحتمى من الحكومة. منذ أن سرق نصيبي من عملية خطف ابن رجل الأعمال وهرب لم يظهر إلا وأنا فى السجن بتعليمات من أميرة.. ثم اختفى ثانية، يظننى نسيت فعلته الدنيئة، لن يفلت من يدى، سوف أضربه لكمةً لن ينساها وآخذ حقي منه، الترامادول لعب برأسي، كان يرتدى جلبابًا أبيض، لم يلتفت لنداءاتى المتكررة ولا لصياحى عليه، حين تدافعت وسط الزحام الشديد ووصلت بالكاد عند أسفل المنصة كان الخطيب قد انتهى من خطبته ورأيت عطية يفسح له طريقًا للخروج، كان يدفع عنه الأجساد المحتشدة بالقوة ثم اختفى. ترددتُ.. قلت ساعتها ربما يكون واحدًا يُشبه عطية منصور. قررت أن أعود له فى يومٍ آخر لأتأكد أنه هو. وعدت.. لكن لحظى العاثر كان يوم الفض وهربت سريعًا. كانت يد أسيل تدير مفتاح باب الشقة فى طريقها للدخول بينما كنتُ أُوارى دهشتى وأختلس نظرةً على اللوحة المركونة خلف المكتبة، أخشى أن تعرف أننى أخرجت لوحتها ورأيت جسد المرأة الممدد عاريًا داخلها، ربما هى.. وربما أخرى تشبهها، الفتاة الهادئة فى اللوحة ليست فتاة المارينز التى تعاملنى كأسير حرب وتُجلسنى على ركبتى فى بلاط المطبخ وترشُ على جسدى مبيد الحشرات.

هامش

الآن سأسلم جسدى لريشته الساحرة وعينيه اللامعتين ببريق مبهج، طلب منى أن أرقد على كنبة الأنترية مسترخيةً.. وأن أمسك فى يدي مجلة "مدام فيغارو". الأمر ليس هينًا كما ظننت، أراد أن يرسم روحًا لا جسدًا، لوحة فنية.. لا صورة بورنو للمراهقين. الفنُّ يعنى أن عينى الموناليزا ليست عينى امرأة بقدر ما هى روح ليونارد، وحين ينظر للمرأة ويحدق فيها.. يتكلم مع نفسه، يفكر فى دمج الألوان بطريقة مختلفة معبرة عن صورة فى ذهنه، ليست موجودة فى امرأة بقدر ما هى موجودة فى عقل ليوناردو. قال إنه يريد أن يرسم لوحة تفوق الموناليزا، سيحيل الجسد المادى إلى دال ومدلول، قال لى.. فى سبيل إقناعى "إن جسد المرأة ممسوس بسر الحياة والكون، المرأة كائن مقدس، الطبيعة جاءت مؤنثة.الشمس مؤنثة.. حيث الدفء والوهج، الجسد الأنثوى هو أيضًا الدفء والوهج، علينا أن نفهم الشفرة". هكذا كان يقول "بسيط" إنه تلقى الشفرة وفهمها وسيودعها لوحته، كان فقط يحتاج إلى جسد أنثوى مُلهم، يمنح فرشاته خطوط الأبدية الكامنة فى الكون، كان العرق غزيرًا على جبهته وهو يحرك فرشاته على اللوحة البيضاء، يرشف قليلاً من البيرة التى وضع زجاجتها إلى جواره ويمسح العرق الذى تسقط بلّوراته على عينيه، يُحرك الفرشاة، يعدل من وضع الإضاءة قليلاً ناحية جسدى الممدد على الكنبة. كنت عارية ولا شيء يحجبنى عنه سوى قطعة الأندر السفلية، على مضض قبلها بسيط بعد تفاهمات وشد وجذب بيننا، لم أستطع تقبّل فكرة عدم وجود تلك القطعة. يجذب أنفاسًا من سيجارته البُنية، ينفخها، تُحيطنى دوائر

دخانه فتلمس جلدى، أخجل، ربما يحاول أن يرسم امرأة أخرى فى ذهنه لست أشبهها على ما أظن، ربما أسرت خياله فبحث عنها فى الكون، يبدو أن الخطوط الأولى للوحته كانت صعبةً، الأمر ليس هيِّنًا، كان يراجع أشياء كثيرة فى وقت واحد؛ ألوانه.. الإضاءة.. هيئتى، حتى قام بخفض صوت عبد الوهاب قليلا "جايين الدنيا ما نعرف ليه". جلست أمامه هكذا لساعات طويلة، كل ما أخشاه أن أكون مجرد موديل يشعل رغبة فنان فى صُنع لوحة.. وبعد أن يفرغ من مهمته يتركنى وقد تعلقت به. كنت أُنهى جلسات كثيرة بحجة أنى متعبة ولا أطيق التمدد على وضعيةٍ واحدةٍ لساعاتٍ طويلة كما كان يريد، أردت أن أطيل وقت رسم لوحته حتى أحتفظ به، لا أُخفى شعورى بنشوةٍ تسري فى جسدى كأنَّ فرشاته تمر على مسام جلدى ونظراته تبرق فى داخلى، أحببت أن أبقى فى العُرى بعد انتهاء الجلسة، أعود إلى حالتى فأرقد عاريةً ممددةً على كنبة الأنترية.. نتسامر ونتشاجر ونشرب البيرة وندخن السجائر ونذهب إلى كافية زمان فى البحر الأعظم، وأحيانًا نتبادل القُبل، وندخل إلى مطبخى لنعد سندوتشات الجبن الرومى واللانشون مع الزيتون الأسود وأوراق الكابوتشي.. ونعود للرسم، كان رائعًا مثل عفريتٍ خطف روحى وجعلها داخل لوحته، صنع جسدًا ليس لامرأة كما قال، جسد خالص، قال لى إنّه يكمل ما أراده راسم الجيوكندا، أخيرًا وجدوا جيوكندا أخرى عاريةً بفرشاة ليوناردو، لوحة مرسومة بالفحم لامرأة عارية، عُرفت باسم "مونافانا"، هي أحد أعمال مرسم ليوناردو الذى فطن لسر المرأة، كان مفعمًا بضوء الحزن، قال لى يومها: "أسيل.. لستِ مجرد جسد مفعم بالشهوة والسحر تملؤه الرغبة، أنت الأنثى صانعة الإنسان بأمر الإله، مخلوق إلهي ولستِ بإنسان، أنت يا أسيل حلقة

الوصل بين الرجل والإله، أنت إيزيس العذراء التي لم تجامع زوجها أوزير وأنجبت حور المنتقم لأبيه، وأنت عشتار في فينيقيا وإيلات في بابل. أسيل.. أنت الجرّة المقدسة التي تشكلت على هيئة جسد أنثى ذات عنق قصير. تلمست أبجديات الجسد الأنثوي حيث الكمال والرغبة. أنت أفروديت حين تبرز محاسن جسدها وكماله. مهمتى صعبة جدًا يا أسيل، كيف أضع كل هذا الكمال فى لوحة؟ لن أستطيع، أنا عاجز، لن أستطيع أن أكمل خطوطى، مهمتى تبدو مستحيلةً، لم يفعلها فنان من قبل، هذا الجسد لا يمكن وضعه فى لوحةٍ، إنها مهمة تفوق قدرات بشري مثلي، تحتاج إلى إله عظيم.. يخلق دون عناء".
خرج بسيط كأنَّه ثمل بعد أن احتسى زجاجة بيرة وهو يلقى فرشاته مرات، شعر بالعجز، حاولت أن أُهدِّئ من ثورته، قلت له إننى على استعداد أن أجلس أمامه أيامًا دون طعام حتى ينهى مهمته. بل قلت له إننى مستعدة أن أتمدد أمامه عمرًا كاملا. كان يبكى كطفل، خرج ولم ينظر إلى توسلاتى، حاولت أن أثنيه، قبَّلت يديه، وضعت الفرشاة في يده كى أحثه على أن يكمل اللوحة لكنَّه أصر على الخروج.
مضى يومان ولم يأت بسيط ليكمل لوحته، كلما أهاتفه يجيبنى إنَّه فى دار الأوبرا يعتصم مع زملائه لإسقاط الوزير الإخوانى الذى أراد أن يشطب الفن بقرار وزارى، لن يجعلوه يدخل مبنى الأوبرا. اللعنة على الاعتصام وعلى المظاهرات. هاتفته ثانيةً، اعتذر.. قال لى إنَّه كان مجنونًا، من يظن نفسه حتى يبارى الخالق، لن أفعلها. وحين عاد بعد يومين أكل كثيرًا ومضى يحكى ويثرثر دون أن ينظر للوحته، لم أحاول أن ألفت نظره، سعدتُ بعودته، طلب منِّى أن أضع ملابسه فى الغسالة ريثما يعود ليلاً ليرتديها. على غير عادته وهو فى طريقه إلى الباب

توقف قليلا.. استدار ناحيتى.. لم أفهم، اقترب وطبع قُبلةً على جبينى ومسح شعرى بكف يده.. وأخذ نفسًا من سيجارته البُنية ثم وضعها فى فمى لأُكملها، يعرف أننى لا أدخن السجائر وأُفضّل الشيشة، خرج دون وداعٍ.. ودون أن ينطق بكلمة. لم يأت ليلاً كما قال. هاتفته، قال بصوتٍ عالٍ إنّه هنَّاك على كوبرى قصر النيل يتظاهر. بعدها لم يعد بسيط لكى يكمل لوحته، وكلما هاتفته أسمع رسالة "الهاتف الذى طلبته ربما يكون مغلقًا، حاول فى وقت لاحق". فأعاود الاتصال مرات ومرات.. ولا يأتى سوى صوت الرد الآلى على هذا النحو.

(10)

أخبرنى عطية أن سيدات المجتمع الجالسات فى منتجعاتهن الراقية فى التجمع الخامس والكمبوندات التى نشأت حديثًا فى المدن الجديدة، يفضِّلنها أجنبيةً.. وعلى الأخص فلبينية كأميرة الفايد. القاهرة الكمبوند، المكان المحاط بسور وداخله بيوت وشقق غالية الثمن، مكان لسكن الأغنياء ولعزلهم عن الفقراء. أنجيلكا.. أو أنجيلا كما تُحب أن تُناديها أميرة. تشير الملعونة سعاد فى حديثها وتلمح إلى علاقةٍ خاصةٍ تجمعهما معًا، هى لم تُصرِّح لى بالضبط ما طبيعة تلك العلاقة بين أنجيلا وسيدتها لكننى أستبعد أن تكون امرأة مثل أميرة الفايد سُحاقيةً، لا يمكننى تخيل ذلك.. أميرة تشبه أسيل.. أسيل أسرتنى داخل شقةٍ بجدارن وأميرة أسرتنى داخل فضاء كونى فسيح. حين فوجئت برسالته على الموبيل التى لم أقرأها سوى الآن، كان قد أرسلها لى بالأمس لكننى لم ألحظها، فتحتُ الرسالة.. وجدتُ فتحى القبانى يُحدثنى عمَّا يجرى فى الونايسة، كرر حديثه عن ضرورة حضورى إلى الونايسة، حالة أبى- كما يقول- فى تدهورٍ بعد أن امتنع فترة من الزمن عن الخروج من البيت، الجيران من حين لآخر يطرقون بابه.. وحين يأتيهم صوته يعودون إلى بيوتهم. حالته ساءت بعد هروب صفية مع عشيقها إلى القاهرة، وازدادات سوءًا بعدما انتشرت الأخبار عن اتهامى بسرقة كيس نقود تبرعات جامع الونايسة، صحيح لم تكن حبَّات الحُمّص التى وقعت من جيبي على حصير الجامع دليلا كافيًا على فعلتى.. لكنَّها أثارت شكوك النَّاس نحوى، وبعد أن استمعت لنصيحة فتحى القبّانى وهربت من الونايسة.. تأكد للجميع أن جابر الونايسي هو السارق. كيف تحمّل سعد الونايسي

كلَّ هذا بمفرده؟ كان فتحى ينقل لى أخباره، أُشفق عليه فى بعض الأحيان وأُرسل له بعض النقود عن طريق مكتب البريد باسم فتحى، القبّانى كان يتركها له فى صالة البيت وينصرف. لم يستطع سعد الونايسي أن يُواجه النَّاس فى الونايسة أو أن ينظر فى وجوههم العابثة النافرة منه، اختبأ فى داره ينتظر الموت أو ربما ينتظر عودة صفية إليه، البنت التى أحبَّها دون بنات البلد، ذات العيون الرائقة والجسد الممشوق. لماذا تركته وهربت؟ ظلَّ يُمنِّى نفسه كما كان يردد أمامى وأنا صغير، كان يقول لى "صفية ستعود، لن تقدر على فراقنا، أنا زوجها وأنت ابنها الوحيد، إنَّها نزوة، أنا أثق أنَّها ستعودُ إلينا". يبكى وتنهمر دموعه.. يُخفيها عنِّي، ينزف حزنًا طوال الليل منذ فراقها، لم ينم كعادته ويهنأ منذ رحيها.. بل تظلُّ عيناه مفتوحتين حتى أذان الفجر. ختم فتحى رسالته بخبر عجيب لم أصدقه، خبر جعلنى أُكمل بقية الرسالة على الموبيل وأصابعى ترتعش وأنا أتطلع إلى ضوء الشاشة "أمك صفية.. يقولون إنَّها رحلت مع سليم القفَّاص إلى خارج البلاد.. ربما لن تعود". اندفعت إلى الشارع وأنا أسابق الزمن، قلتُ للسائق التاكسي وأنا أُغلق الباب بقوةٍ جعلته ينظر لى بغضب "تحرك سريعًا من فضلك". تردد السائق، لم يكن يعرف إلى أين يتجه.. ولم أعرف، ربما كنتُ أريد أن أنسى رسالة فتحى المؤلمة.. أوجعتنى رسالته، أو كنت أتمنى أن أراها صدفةً فى أحد شوارع القاهرة، سأبحثُ عن وجهها، لم أكن أعرف ماذا سأقول لها؟ ربما سأحكى لها ما وقع لى، سأجلس بين يديها وأحكى عن جرائمى، أبكى أمامها وأعترف بكل خطاياى. أم ستسبقنى هى وتطلب منِّى أن أغفر لها ما فعلته بي حين تركتنى صغيرًا؟ هل ستعرف ملامحى التى تغيرت كثيرًا؟ نسمعُ فى الحكايات الشعبية عن قلب الأم، سيهديها

حتمًا إلى ابنها، سأحاولُ إقناعها، إذا نسيتْ سأذكرها بطيورها التى كانت تنتظر- عند عودتها- ماءها الحلو المذاب فى السكر، سأذكرها بسندوتشات الطعمية التى كان الأولاد فى المدرسة يتسابقون لإرضائي كى أمنح أحدهم قطعة منها. ستوافق أن تعود معى إلى الونايسة ونترك هذا العالم السيّئ المليء بالخطايا والذنوب، سنعود إلى الونايسة لنكمل حياتنا كما بدأت.. أسرة سعيدة، سنكمل كأنَّ شيئًا لم يحدث، ستعود صفية إلى سعد الونايسى.. الذى سيرق قلبه لبكائها ودموعها التى ستنزفها على صدره المشتاق، وسيسامحها كما يسامح الرب المذنبين، وأعود إلى مدرسة الونايسة صغيرًا، لن أتسلق جدار الجامع.. ولن أستولى على كيس النقود، سيعود الزمن بي القهقرى، سنعود أنقياء كما كنا بلا ذنوب ولا خطايا. خطواتى إلى شقة سعاد ثقيلة، لم أجد سواها لأذهب إليه فى هذه الساعة لأتخلص من أوجاعى، كان الوقت متأخرًا، كنتُ شاردًا وأنا أرفع قدمًا وأخفض الأخرى على الأرض، خطوات لزجة متعبة تائهة، لا تعرف وجهة تسير إليها، استسلمت للشاب الذى طلب منِّى أن أرفع ذراعى لأعلى حتى يقوم بتفتيشي جيدًا، انصعتُ لكل أوامره.. وبعد تفتيش دقيق سمح لى بالدخول إلى الشارع الذى تسكنه سعاد. دخلت وأنا أطل فى كل الوجوه لكى أرى وجهها كما عرفته من سنوات بعيدة وانحفر فى عقلى.

هامش

بالأمس شيَّرت "الغفلانة"بوست حزين على صفحتها، لم تكن عادتها، ماذا فعلت الثورة بالناس؟ مروة لا تعرف الحزن، هى روحٌ فَرِحةٌ منطلقةٌ متفائلة، اندهشتُ، أُهاتفها مرارًا لا ترد، ستكون كعادتها نائمةً، أصبحتْ تنامُ كثيرًا هذه الأيام. أشعرُ بالقلق، فكرتُ فى الذهاب إليها، نظرتُ فى الساعة.. كانتْ الواحدة صباحًا، خفتُ أن أقودَ سيارتى فى هذا الوقت المتأخر، الشوارع لم تعد آمنة، لمتُ نفسي لانشغالى عنها، لم أهتم بها كصديقةٍ وفيّة، تركتها فى أزمتها وانشغلتُ بمعاقبةِ التشكيلى المتمرد الذى يُريد أن يغيرَ العالم بالقوة كقاطع طريق. منذ أن أغلق بهجت بك شركة السياحة وجلستْ مروة فى البيت بدون عملٍ وهى قلقة مضطربة تائهة، روحها المرحة غائمة، تهذى بكلمات عن الموت والحياة والعبث، لم تعد مروة مشرقةً كما كانت، تبدَّل حالها كما تبدَّل حالُ كل شيءٍ، حتى المدينة التى أحببناها تغيّرت ملامحها. مروة تُغرد بكلمات حزينة متشائمة على تويتر، ولا أصدقُ حين أطالع صفحتها على الفيس. حكت لى عندما كنَّا معًا على الكافيه منذ أيام أنَّ بهجت بك جمع موظفي شركة السياحة وأخبرهم بنيَّته إغلاق الشركة، قال بلهجةٍ ضائعةٍ وحروف منهزمة "لا جدوى من بقاء الشركة، لا توجد سياحة منذ اندلاع المظاهرات، كل الرحلات توقفت". حاول الرجلُ أن يُبقى على الموظفين قدر استطاعته، دفع رواتبهم شهورًا عديدةً من حسابه الخاص.. أملاً فى أن تعودَ الأمورُ إلى مجراها الطبيعى وتنتعشُ السياحةُ مرةً أخرى، يبدو أنَّه لا جدوى ولا أمل، مع كثرة المظاهرات والفوضى والفراغ الأمنى.. الكلُّ يخشى أن يأتى إلى هنا. قال بلهجةٍ حزينةٍ "يبدو

أنَّه لا مفر من إغلاقها الآن. عجبًا.. الحكومات الأجنبية تؤيد الثورة والمظاهرات.. ثم تُحذِّر مواطنيها من السفر إلينا بحجة الخطر لتشتد أزمتنا، أنا أصبحت عاجزًا عن فهم ما يجرى مثل كثيرين.. هل هى مؤامرة فعلا؟". بكى الرجلُ وبكينا من أجله، ترجَّيناه أن يُبقى الشركة مفتوحةً، قلنا له "لا نريد رواتب". صمَّم على موقفه، الرجلُ أوشك على الإفلاس، قبل أن يفارقنا سلَّم كلاً منَّا مظروفًا به مكافأة زهيدة.. وشكرنا ومضى إلى حال سبيله. مرَّت الأيام ودخلت مروة فى اكتئاب حاد، لم تعد كما هى.. مبتسمةً جريئةً، انطفأت روحها، كفَّتْ عن قفشاتها المضحكة ونكاتها الإباحية التى كانت تُسرّ بها إلىّ فى الكافية فتنطلق ضحكاتنا لتثير انتباه الشباب، يبدأون فى التهامس حولنا، نكف سريعًا عن الضحك ونعود إلى وقارنا سريعًا قبل أن نصبح فريسةً لهؤلاء الطامعين المتربصين، نشد دخان الشيشة ونحكى عن بسيط أو عن سندوتشات نعمة أو برفان الشانيل. عندما زرتها فى شقتها كانت فى فوضى عارمة، تحوَّلت إلى مقلب زبالة، شنط.. مشابك الشعر.. أدوات التجميل.. مناديل ورق.. مناشف قطنية.. قمصان نوم.. دبابيس. كانت نائمةً على سجادة الصالة، وضعت "شلتة" الأنترية كوسادة تحت رأسها، وإلى جوارها علب البيرة وبقايا سجائر وفناجين مقلوبة، كان التليفزيون مفتوحًا على قناة ماسبيرو زمان، وهاتفها مغلق بعد أن فرغ شحن البطارية، أخذتها إلى الحمَّام ووضعتها تحت الدش لربع ساعة حتى أفاقت، سوَّيتُ لها شعرها وأعددتُ لها فطورًا وجلسنا نأكل سويًّا، كانت تمد يدها دون شهيّة للطعام. حاولت أن أجر الحديث بيننا عن بسيط.. وكيف انقلب من تشكيلى إلى ناشط سياسي يذهب إلى الاجتماعات والمظاهرات كل يوم، حاولتُ أن أُخرجها من حالتها،

ذكّرتها كيف كنا بلهاء حين نزلنا مظاهرةً ضخمةً فى ميدان التحرير تطالب برحيل النّظام، وفى اليوم التالى مشينا معًا فى مظاهرة بشارع جامعة الدول العربية تؤيد النّظام. ابتسمت قليلاً، طلبتُ منها أن ننزل لنذهب إلى كافيه زمان لندخن الشيشة.. رفضت، قلتُ لها حزينة "اسمعى.. لابد أن نذهب معًا، حاولتُ أن أدخن الشيشة بدونك أمس على الكافية حين ذهبت بمفردى.. لم أستطع، كان دخانها بلا طعم، اشتقت إلى قفشاتك ومرحك، اشتقت إلى سماع نِكاتك الإباحية. لماذا لا ترسلين لى آخر فيلم إباحى للبطلة ذات المؤخرة باستدارة تشبه ثمرة الكمثرة، والتى تُشبه إيما ستون.. أو تشبهنى.

(11)

قلتُ له.. وماذا عساك أن تُقدم لى وأنت قابع هنا على حافة الحياة، تجلسُ تحت جبلٍ عامر بالعقارب والحيَّات، تأكلُ الرغيف النّاشف وقطع الطماطم، حجرتك مسقوفة بالجريد، والشمس تخترق أعواد البوص الواقفة فى الجانب الغربي تصد عنك حرارتها الملتهبة، لكنَّها تُغافل أعواد البوص المرهقة وتسقط على رأسك الملفوف بعمامةٍ خضراء، لا يأتى إليك أحد إلا هاربٌ من حياته، ضائع مثلى، ترك الحياة خلفه ركامًا من رماد، أنت مجرد صوفي طيب اعتكف وترك أجساد النّساء الطرية وموائد الطعام العامرة والبيوت المفروشة بالحرير.. وجلس بمفرده هنا بحثًا عن لذة مفقودة بين خرائب الجبال. كان ينظر إلىَّ بعينين مرهقتين.. وتطلع إلى وجهى الغاضب، لم يقل شيئًا، مللت نظراته التى تمتلئ بالرضا الكاذب. تكوَّمت عند باب العشة أتطلعُ إلى غروب الشمس.. ورأيته يتأملنى، كان يردد تمتمات لم أتبينها، حين قال لى "انهض".. تعجّبت من قدرته على إصدار أمر كهذا لى.. وأنا الضعيف الذى يستجيب له كأنَّه الرب يمنحنى رضاه الذى افتقدته، ضحكتُ حتى امتلأ فمى ضحكًا وسخريةً من سذاجته ومن حُمقي، كيف أتبعه وأسير خلفه، أضحك فى نفسي وأقول: "كيف لهذا العابد الناسك ألا يعلم مرضي؟". سمعته يردد "وقد يريحك أن تعرف أن الله يعدنا بعالمٍ جديد، سيخلو من الآلام والأحزان التي تضايقنا اليوم". وما لم يعلمه ولم يعرفه أننى أمسكت عودًا من الخوص، أرسم به على رمل الجبل، منذ أيام عاد فتحى القبّانى وتركنى هنا وحيدًا، عاد إلى المصيدة وأرانب الجبل التى يريدها. قال لى "هنا فى الجبل ستبقى وحيدًا، هذا هو علاجك.. أن

تبقى وحيدًا لتواجه نفسك وتعرف خطاياك التى اقترفتها فى ماضيك، الشيخ سيعينك على التخلُّص من آلامك، هنا ستفرغ همومك التى أثقلت كاهلك". كنت أتابع حديثه الساذج وأضحك داخلى.. وبحسب المزمور التوراتى "الله يعتبر مَن لا يتوبون عن خطاياهم أعداءً له". لكن مع مرور الأيام تأكد لى أن مثلى لن ينصلح حاله، حين صعدتُ الجبل خلف فتحى القبّانى لم أكن أبحث عن توبةٍ كما يظن فتحى، كنت أبحث فى قرارة نفسي عن ملجأ آمن للهرب، كل الذين يركضون خلفى الآن لن يهديهم تفكيرهم إلى هذا المكان.. جبل الونايسة، حملت كل هزائمى.. وحين فكرت فى مكان آمَنَ فيه على نفسي كان الجبل وكانت عشة الشيخ. بوسعى أن أمنحك أيها الشيخ جزءًا من هذه الهزائم لتفعل معى كما فعل أبو العلاء مع ابن القارح، امتلك قوة كالتى امتلكها أبو العلاء المعرِّى فى رسالة الغفران، أدخلنى إلى عالم الغيب لأطَّلع على ما سيكون وأعرف مصيري هناك.. حيث عالم الغيبِ البعيدِ، وتعبُر بي عبر الزمانِ والمكان لأعرفَ أين أكونُ.. فى الجنةِ أم النّار، هناك حيث أمعن المعرِّى وصف عالمه الذى أُوشك أن تُدخلنى إليه الآن "كثبانٌ من عنبر، نوقه من ياقوت، ودرّ، وصخوره من زُمرّد، خمره وحليبه أنهار، سحابه ينثرُ حصى من كافور، ظلال شجرةٍ تأخذ ما بين المشرق والمغرب، مُكوّناته لا يُصيبها التّغيير والتحوّل، ثمر شجره تخرج منه الحورُ العين، ماء الحيوان فيه يمنحُ الخلُود". مسكين فتحى القبّانى.. أشفق حين رأى دموعى الكاذبةَ تسيلُ على وجنتى، ظنّها دموع التوبةِ، أيةُ توبة وأنا أحمل فوق ظهرى جبلاً من المعاصي والخطايا ربما يفوق جبل الونايسة نفسه؟! لم يدرك أننى جئت إلى هنا هربًا.. بعيدًا عن هؤلاء الحمقى الذين يتظاهرون هناك فى شوارع العاصمة ويحطمون كلّ شيءٍ

خلفهم، لم يدركهم اليأسُ لكن عمّا قريب سوف يقعدون، لن يصلوا إلى جبل الونايسة الشاهق البعيد عن ضوضاء العاصمة ومظاهراتها وعنفها.. وضراوة الغربة وقسوة بلا نهاية، هنا الراحة والسكينة.. حتى هذا الشيخ الطيب ربما يظن أننى واحد من العُصاة جاء يبتغى توبةً فى حضن الجبل العالى، أو ربما يظننى أحد المريدين الذين يقطعون رحلة الصعود الشاقّة بحثًا عن الشيخ ورغبةً فى التمسُّح ببركته، سأتركه يتخيلنى كما يريدنى.. تائبًا أو مريدًا، لن أبوح له بشيءٍ حتى يملّ منى، حينها سأهبط وأترك لك أيها الشيخ هذا الجبل القاحل لتنعم به، هل قرأت دانتى في البورجاتوريو؟ قال "إن التائب يسير بين النيران ليطهِّر نفسه من الأفكار والمشاعر الجنسية". وأنا لم أقرب جسد أميرة بعد، والتشكيلى الذى أحب أسيل ورسم امرأة تُشبهها بفرشاته كانت واقفةً أمامه كعود سيسبان عاريةً.. لكنه لم يقربها، وضعها فى لوحته ولم يلمس جسدها، لم يرد أن يُدنِّس الجسد بخطاياه، دانتى حين وصف أمثالى في ملحمته قال "المذنبون سيتم تقييدهم ووضع وجوههم على الأرض لأنّها كانت تهتم أكثر بالأفكار الدنيوية". أنت ودانتى وجهان لعملةٍ واحدة، لن أنحنى لأقبّل يدك حتى ترضى عنِّى وتمنحنى صك الغفران من ذنوبي، أعرف أن ذنوبي كثيرة لكنَّك لا تُريد أن تطهِّرنى منَّها، أنت تريد فقط إخضاعى لإرادتك وأن أسير خلفك مهزومًا، أضعُ على ظهرى ألواحًا حجرية كما وصف دانتى المذنبين التائبين في الكوميديا الإلهية "التائبون أُجبروا على المشي بألواح حجرية تُحمل على ظهورهم من أجل إجبارهم على الشعور بالتواضع". تحدثنى عن أميرة الفايد وكيف سرت خلفها سنوات العذاب والألم واللذة، هل تملك أن تقول لا.. لامرأة مثل الفايد؟ المرأة الجميلة لها سلطان يُخضعك حتمًا، انظر

إلى ابن القارح.. كيف تحدَّث عنه المعرِّى وهو فى الجنة العالية، ابن القارح شيخٌ يُظهر الورع والوقار.. لكنّه يترشّفُ رُضاب جاريتين من حور العين أو يعربدُ ويُقيم مجالس الأنس والطّرب، ويخاصمُ بفعل السّكر، أو يختلس النّظر إلى ردف جاريةٍ أثناء السّجود، ومع هذا أدخله المعرِّى الجنة، وأنت لا تُريد أن تدخلنى جنتك، أبو العلاء أدخل زهير بن أبي سلمى الجنَّة ببيت من الشعر.. رغم كل ما فعه.. وليتك تفعل. سأكتب لك قصائد من الشعر على أن تُدخلنى الجنة وتمنحنى المغفرة من كل ذنوبي. ابن القارح كان يختلس النظر إلى ردف جاريةٍ أثناء السّجود.. وأنا سرتُ مثله خلف مؤخرةٍ باستدارة قُبةٍ سماويةٍ تُشبه استدارة الهلال المنير.. فما الفرق؟

(12)

ما لم يعرفه فتحى القبانى أننى كنتُ أُطلق سراح فرائسه دون علمه، كنتُ أُطلق سراح الأرانب البرية التى تقع فى مصيدته، وكان القبّانى يندبُ حظه العاثر عندما يتحرك صوب المصيدة فلا يجد شيئًا، لم أسأل نفسي يومًا لماذا أفعل هذا مع القبّانى؟ فقط كنتُ أشعرُ بالسعادة لأن هذا يحدث له، أرى علامات الحسرة والخيبة على وجهه وهو يتأفف غضبًا حين يراها فارغةً مُطبقةً على الهواء.. بينما لا يجد قطعة الجزر التى وضعها، يضربُ رأسه بكفّه ويتعجبُ من مهارة الأرانب، كيف تخطفُ الجزرة وتهربُ سريعًا من المصيدة؟! وأنا أضحك وأكركر من السخرية لحاله. يقضى وقتًا طويلاً فى انتظار أن يدخل أحد الأرانب البرية التى تسرحُ فى الجبل مصديته.. وحين ترى الأرنبة الجائعة قطعة الجزر التى يعلقها فتحى فى المصيدة تدخل طائعةً، أعماها الجوعُ عن رؤية المصيدة.. وحينها وفى أقل من الثانية يغلقُ باب المصيدة عليها وتصرخُ الفريسةُ المسكينة. هكذا فعلت أميرة الفايد.. أدخلت فرائسها وأغلقت خلفهم باب المصيدة ومضت لحال سبيلها، كانوا يتعاركون كأحرار بينما هم فرائس أسرى فى سجن بلا أبواب. تلك هى الخدعة كما قالت لى أميرة.. لتشرح لى ما تقوم به، قالت ضاحكة "سأدعهم يدخلونها بأقدامهم كأحرار.. ويهتفون ويتظاهرون.. بينما هم فرائسي". لم أحب الخدعة، الصياد الماهر هو من يواجه فريسته.. لا أن يخدعها. صفية دخلت بيت أبي كما يدخلُ الأرنب البرى مصيدة فتحى القبّانى.. وحين حان الوقت فتحت الباب وهربت، سعد الونايسي لم يكن الرجل الذى حلمت به صفية.. بجسدها البض النافر ووجهها الصبوح المشرق،

كانت تحلمُ برجلٍ يروِّض أنوثتها، لم يكن سعد هذا الرجل، كان يقف عاريًا أمامها بلا حلم، يسيرُ مثل كل فقراء هذا العالم إلى مصيرهم المحتوم.. بجيوبٍ فارغةٍ وتطلعات عريضة لن تتحقق، لا أمل فى أن يفلت أحد هؤلاء الفقراء فى الونايسة من هذا المصير سوى قلة قليلة.. كما قالت لى يومها أميرة الفايد وهى تفتح لى عالمها الملغز الذى لم أفك شفراته حتى الآن، وجَّهت لى كلمات قوية نفذت إلى عقلى، قالت يومها "جابر.. يجب أن تتخلص من فقرك وأن تنفذ من خرم الإبرة لعالم فسيح، يجب أن تودِّع حياة السلحفاة.. حيث تسير السلحفاة وهى تحمل آلامها على ظهرها". أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أردد كلماتها طوال الليل فى سريرى، ماذا سيضير العالم إن نقص عدد فقرائه واحدًا؟ لن يخل ميزانه الذى وُضِع منذ الأزل، سأسير خلف أميرة الفايد كما صارت صفية خلف سليم القفّاص، سأدخلُ قفصها كفريسةٍ.. ثم أصير وحشًا يبتلعُ هذا العالم.. لن أظل فريسةً، تبعتها كأعمى لكى أرى عالمًا جديدًا ينفتح أمامى.. فيلات وقصور، الشر هنا ليس كشر أهل الونايسة حين يسرق أحدهم حمل برسيم أو جوال ذرة أو كيس نقود جامع، هذا المال سيذهب للفقراء.. كما يزعم شيخ الجامع، وما فعلته ليس سرقةً.. لقد أخذت مالى، لا يوجد أفقر منِّى فى الونايسة كلها. ظل فتحى القبانى يرسل رنينه عبر هاتفى.. كان يطلبنى، موسيقى الهاتف لا تكف.. ما إن ينتهى رنين حتى يبدأ أخر، ربما كان يُريدنى فى أمرٍ هام، لست فى حاجةٍ الآن لثرثرة القبانى عن أخبار الونايسة المملة، لا جديد يحدث فى الونايسة سوى قصص فتحى الفارغة عن فلان الذى باع قراريطه لفلان.. وآخر تزوّج من ابنة فلان، حكايات سخيفة يظن فتحى أننى شغوف لسماعها فيشرع فى ترديدها على أذنى، لا حاجة

لى الآن لسماع حكايات الونايسة، دعه يرن.. لن أرد عليه. أخيرًا كف عن رنينه المتواصل، فجأةً سمعت صوت موسيقى الرسالة، هممت أن أفتحها، كانت رسالة طويلة استغرق الهاتف وقتًا لفتحها (لماذا لم ترد على الهاتف يا جابر؟ أعرف.. ستكون مشغولا كعادتك لكن الأمر مهم، أبوك يا جابر- سعد الونايسي- اختفى من الونايسة منذ يومين، لا أحد يعرف مكانه، ذهبت إلى بيتكم وطرقت الباب مرات عديدة، لم يخرج لى. بعض النسوة شاهدنه وهو يتجه إلى الجبل، فى الأيام الأخيرة كان يخرج كثيرًا متجهًا إلى الجبل. النّاس فى الونايسة يرددون أن أباك ربما خطفته جنّية الجبل التى أحبّته، لكن الحقيقة أن سعد الونايسي أحب امرأةً غجرية فى عينيها كحل أسود وعلى وجنتيها ورد أحمر بلدى ولها مؤخرة تشبه قبة سماوية، ربما تزوجها أبوك وذهب ليعيش مع الغجر، قبائل الغجر تسكن بعيدًا خلف الجبل، أنت تعرف الغجر، كلّ حين يرسلون فتاةً منهم ليأخذوا واحدًا من الونايسة. النّاس يخشون المرور من أمام بيتكم، يظنون أن الجنّية ستسخطهم قردةً، وحين يضطرون للمرور يُسرعون الخطى خوفًا. لابد أن تأتى سريعًا يا جابر، عُد إلى الونايسة لتعرف مصير أبيك. اتصل بى ضرورى). أغلقتُ رسالة فتحى ورميت المحمول إلى جوارى.. ونمت.

(13)

كانت تهبط كملكةٍ من سيارة الـ "بي إم"، يسير خلفها رجل فارع الطول، فى دلال تُوزع نظراتها على كل المتطلعين، ابتسامتها مشرقة كما عهدتها.. بريئة صافية كنور الصبح، اندفعتُ إلى داخل "الفور سيزون".. ألهث خلفها، قررت بعد تردد أن أدخل.. رغم مرور كل هذه السنوات تحمل نفس الوجه الطيب ونفس الملامح البريئة، لا يمكن أن يختلط الأمر علىّ ولا يمكن أن تكون امرأةً تُشبهها إلى هذه الدرجة، تخطيت البوابة الرئيسية ودلفت إلى اللوبي، اتجهت صوب المصعد.. ارتفع بها إلى أحد الطوابق، رنين أميرة الفايد المتكرر جعلنى أتوقف عن متابعة صفية عمران التى رأيتها توًّا، ليست امرأة تشبهها على كل حال، لن تخطئ عين طفل الونايسة عن معرفة وجه أمه الصافى مهما اختلط بالمساحيق وعلت عينيها الرموش الصناعية وأغرقهما كحلٌ أسود.. وتشكّل شعرها على شكل قصة شادية وأغرقت شفتيها فى أحمرٍ قانٍ، لا أخطأها، ما زلت أشم رائحة صدرها حين كانت تضمنى صغيرًا إلى حضنها.. رائحة لا يخطئها طفل، رائحة الأم الطازجة أول ما تشمه أنفه، رائحة لن يخطئها أنفي مهما رشَّت على جسدها أغلى العطور، أول طعم يتذوقه لسانى، لن أخطئه، سأعود إليها هنا فى "الفور سيزون" فور أن أفرغ من إلحاح امرأة الفايد المتواصل على الهاتف.

وأنا أسوق الـ "كيا" وأطالع شوارع القاهرة التى تغيرت تمامًا، سدادات إسمنتية تُغلق معظم الشوارع، سماع دوى الانفجارات وصوت الطلقات صار مألوفًا، القاهرة ليست تلك القاهرة التى أتيتها منذ سنوات، على بُعد خطوات منِّى كانت مظاهرة صغيرة.. تضم عُمّالاً يطالبون بزيادة

الأجور، الذئاب أمثالى يروقُ لهم ذلك المناخ.. حين لا تجد أمنًا والفوضى تعم الشوارع، كانت تلك فرصة عطية منصور، حضر لى على عجل ليخبرنى أننا يجبُ أن نتهيأ لأعمال أكبر، هذه فرصتنا، قمنا بعمليات سطوٍ كثيرة. فى آخر عمليةٍ قمنا بها سويًّا حصل على فديةٍ من رجل أعمال شهير، كانت مبلغًا كبيرًا نظير إعادة ابنه. هاتفنى، طلب منِّى أن أنتظره فى شقتى بالشوربجى، الشقة التى هجرتها منذ سنوات، لكن عطية اختارها لتكون مركز العملية. ابتهجتْ أساريري لنجاحنا واستلام الفدية، طلب بصوتٍ مُبتهجٍ صندوقًا من البيرة لكى نحتفل سويًّا الليلة بالمبلغ الكبير، ضحكتُ حين عرفت أننى سأحصل على مبلغ كبير كهذا، قررتُ أن ألبى له طلبه، أحضرت صندوقًا من "ستيلا"، وعندما تأخر عن موعده رحتُ أشرب بمفردى واحدةً تلو الأخرى، طوال الليل أعاقر البيرة وأنا فى انتظار جودو.. فى انتظار عطية منصور والمال الوفير، أعلم أنه لن يأتى، أخذ الفدية من رجل الأعمال وسلَّمه ابنه، اختفى ومعه المال، قرر أن يتخلص منِّى، هرب النذل بمبلغ الفدية، أعرف أن هذا هو قانون الذئاب، من يقتنص شيئًا ويستطيع أن يفلت به سيفعل، علت ضحكاتى حتى ظننت أننى أصبت بالجنون، القاهرة التى عرفتها لم تكن بهذه القسوة مع الغرباء، اليوم أصبحتْ كالكلأ المباح، قديمًا كانت الذئاب تمارس أفعالها الخسيسة بقانون واضح، اليوم الذئاب بلا قانون، السياسيون أصبحوا مثلنا.. يقتلون ويحرقون.. بل كانوا يبحثون عن ذئبٍ مثلى لكى ينفِّذ لهم أغراضهم، لم يكن بوسعى فهم كل ما يجرى، كيف يلتقى السياسي والذئب فى طريقٍ واحد؟! الولد الذى طعنته بسكينٍ عند كوبرى الجامعة وسط انشغال الجميع بالهتاف كان يرتدى ملابس تشي بأنه ليس قاهريًّا، كان وافدًا مثلى.. ربما هجرته أمه

أو تزوجُ أبوه من غجريةٍ مثل أبي سعد الونايسي وانتقل ليعيش معها عند قبائل الغجر، قبائل الغجر التى تسكن خلف الجبل.. هناك فى الصحراء. لماذا أتى مثلى ضائعًا؟ حملوا جسده المخضَّب بالدم، ذهبوا به إلى مستشفى الميدان، لا أعرف إن كان نجا أو فارق الحياة، لكن عينه وهى تنظر ناحيتى تسألنى.. لماذا لم تتركنى لأنام؟ كان مسكينًا يصدق ما يرددون من شعارات، الشعارات التى تصكّها أميرة الفايد فى بيتها بالتجمع الخامس.. وتعطيها لهم عبر الهاتف.

(14)

أسيل تخرج الآن من حجرة نومها فى منتصف الليل، تمر إلى جوار رأسي وجسدى الممدد على سجادة الصالة.. تنقر بأصبعها على لوح زجاج المنضدة التى تتوسط كراسي الأنترية، أتنبَّه، أحاولُ النهوض على مراحل..

- أريد كوبًا من النسكافيه حالاً.

أنهض متكاسلاً.. تحثُّنى بعبارتها الحادة، أتململُ من تلك الحياة الرتيبة، كيف لمثلى أن يصبح خادمًا فى كف فتاة مثل أسيل.. تفعل بي ما تشاء؟ لماذا لا أفكر فى التمرُّد أو حتى فى الهرب من هنا حتى أتخلص منها؟ ما الذى يبقينى؟ البخار المتصاعد من البراد الكهربائي يُعلن عن بدايةِ مرحلة الغليان، أحملُ إليها فنجان النسكافية، تمددتْ على كنبة الأنترية بجسدها المغسول بماء السحر، تعاريجه المصنوعة بعنايةٍ فائقةٍ على يد فنان عبقريّ، قلتُ لمَ لا أتخيلها زوجتى؟ ليس لى زوجة، عشتُ حياتى بلا عائلة، سأتخيلها زوجتى الآن، اقتربت من أذنها وهمستُ بلغةٍ لطيفةٍ لم أعتدها من قبل..

- النسكافية يا.....

احترت كيف أُناديها، سأناديها سيدتى.. امرأتى.. فتاتى.. ربما زوجتى.. أو الأليق أميرتى. قامت وتناولت الفنجان من يدى بأصابعها المغزولة بماء النّور النقي، وأنا تائه.. مازلتُ واقفًا مكانى، لم أتخلص من حيرةٍ داهمتنى..

- هل تسألنى متى سأمنحك حريتك لتعود إلى عملك وزوجتك وأولادك؟

وجدتنى أسرعُ دون تفكيرٍ عميقٍ فى حديثها:

- أنا حر، لست متزوجًا وليس لدى أولاد.

لأول مرةٍ ألتفتُ إلى جمال أسنانها حين ضحكتْ، ظهرتْ أسنانها لامعةً مثل كريستال مُصفًّى، لم أتنبه إلى كلمات كثيرة مما قالتْ توًّا، لم أسمعها وأنا فى التيه، كنت منغمسًا فى تفاصيل ضحكتها الرائقة الصافية التى طوَّقت بها الصالة، اهتزت الستائر نشوةً وزلزلت الأركان..

- تظن أننى سلبت حريتك، لو دقَّقت فى كل حياتك التى مرَّت.. لن تجدك سوى عبدًا، ليس بإمكاننا فى هذا العالم أن نكون أحرارًا.

جرجرت قدمىَّ، تربعتُ على السجادة قبالتها ووجهها غارق فى بخار النسكافية المتصاعد من الفنجان، تهرش بظفرها باطن قدمها، تتابع المذيع وهو يصرخ على شاشة التليفزيون، تنقل القنوات عبر الريموت بعصبية، لا يعجبها شيء، تتوقف لثوانٍ أمام مذيع لامع.. أحفظ وجهه، ثم تضغط على زر الإغلاق بضيق "يرددون نفس الجُمل بنفس التون وذات النبرة.. كأنّهم ممثلون بارعون". تأخذ رشفةً من الفنجان وتعاود هرش باطن قدمها. أندهشُ من نفسي كيف لم أفكر بها؟! إنها أنثى تخطف قلبي، ها هى أمامك ممددة كربَّة جَمال.. تمتلك مؤخرة مستديرة برفق وفوقها تمامًا خصرٌ نحيف يُبرز روعة المؤخرة ويحيط بدوران الفخذين الملفوفين بتأنٍ. أسيل امرأة صُنعت على مهلٍ، صُنعت بأزميل نحّات ماهر، نحّات فرعونى أصلي، ربما تفوقها أميرة الفايد جمالاً.. لكن لأسيل مذاق الأنثى الآتية من رواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ، أنثى طازجة خارجة لتوِّها من حمَّام بخار مملوكى فى حى الحسين، نظرتها الحادة تمنحك حيويةً ورهبة تملأ عروقك الباردة، لسانها الطليق بقاموس متفرّد بألفاظ بذيئة، راقبتها حين مررت إصبعها السبابة على دوران الفنجان واقتربت تلحس إصبعها بلسانها، تتذوق بقايا النسكافية العالق على الفنجان، تبرز بلّورات العرق على جبهتى،

أمرر باطن كف يدى أمسحها، تضحك حين ترى حيرتى وتنهض فجأةً كذئبةٍ رأت فريسة تتلوّى..

- وقح.. تنتظر أن أعطيك بقايا فنجانى لتلحس ما به.

طوَّحت الفنجان فتناثر النسكافية على أرضية الصالة.. وعلى جزء من السجادة، انتشرت البقع البُنية، انكمشت بعيدًا، كانت كنمرة تحاول أن تدهسنى حين هجمت علىّ ممسكةً برقبتى تحاول الفتك بي، أبعدتُها عنِّى بقوةٍ.. حينها عرفت مبلغ قوَّتى، تراجعت مستسلمةً، رفعت يديها عن رقبتى، تركت أظافرها نبشًا خفيفًا فى عنقى، تحسستُ موضع الألم بكفى، انغرست أظافرها فى لحم الرقبة، لم أكن أتوقع فعلتها، باغتتنى بانقضاضها، أود أن أصفعها الآن وألوى ذراعها إلى الخلف، سأتركها تتجرع ألمًا لم تذقه من قبل، سأذهب بها إلى الحمّام وأدفن رأسها فى قاعدته وأجعلها تشرب مياهه القذرة، سأجعلها تتنفس بصعوبةٍ، تصرخ، تتوسل أن أتركها، كل هذا دار بعقلى لثوانٍ معدودةٍ ثم تبخّر بعد أن تذكرت الضابط المرابط مع جنوده أسفل العمارة، ربما يكفيهم صرخة من أسيل حتى يأمر الجند بكسر باب الشقة واقتحامها، وعندما يجدنى لن يتردد، سيعرف أنه قد عثر على صيده الثمين، تخليتُ عن هواجسي الدائرة فى ذهنى كطاحونة لا تتوقف، كانت أسيل قد عادت إلى كنبة الأنترية، لم تمدد جسدها كما كانت، بل جلست قبالتى وأنا محشور فى ركن الصالة، مازلت قابعًا فى خيبتى، لا أفهم ما جرى منذ لحظات، أتجرّعُ انهزامى ككأس خمر مغشوش ناولنى إياه عطية منصور وشربته دفعة واحدة، آلام معدتى لا تُطاق. أخفت وجهها بين كفّيها، ربما شعرت بالندم فأرادت أن توارى وجهها عنِّى حتى لا أرى ذلك الندم. دون أن تدرى سقط شعرها على أذنيها ووصل إلى ركبتيها حين مالت بجذعها

إلى الأمام لتخفى وجهها.. تمامًا بين وركيها، تأملتها، كانت فى حاجةٍ إلى فنان يرسمها على تلك الهيئة، لوحة لامرأة تدفن وجهها بين وركيها بينما شعرها ينسدل حول خصرها المائل، لوحة ستحصل على جائزة عالمية، أين رسّامها؟ لماذا ترك لوحته وهرب؟ ربما شراسة أسيل، ربما جنونها وتقلُّب مزاجها، الفنان أيضًا مُتقلِّب المزاج، يحب ويكره فى آنٍ واحد، يفترش الأرض المتسخة ويتحدث عن العدل الاجتماعى، لو كنتُ رسّامًا لرسمت الآن أعظم لوحة لامرأة. كنت سأذهب إلى أميرة الفايد.. وربما نجحت أن أخطف قلب أسيل كما فعل بسيط. تذكرتُ اللوحة المدفونة خلف المكتبة، لو رآها لطلب منها الآن أن تسكن بلا حراك ريثما ينتهى من تشكيل اللوحة البديعة، التكوين الجسدى الملهم، امرأة تنهمر بقوةٍ، مندفعة كشلالٍ هادرٍ لا يتوقف، لو كان الأمر بيدى لاخترت أن أكون فنانًا أرسم الجميلات بمهارة، تلك الأمنية ستتحقق حين يعيدنا الله إلى الحياة مرةً أخرى، تلبسنى روح وعقل فنان، سأرسم لوحة لأمى صفية فى كراسة الرسم، حين تراها لن تخرج من البيت خلف سليم القفّاص، ستجلس لتشاهد خطوطها الرقيقة كالحرير، وجهها الطيب مثل وجه العذراء مريم الذى شاهدته مُعلقًا على حائط الصالة فى بيت القس سمعان فى الونايسة.. وحوله ملائكة طيبة بأجنحةٍ. حين رفعت رأسها المدفون بين ركبتيها همستْ بحروفٍ مبللةٍ بحزنٍ يخرج مُفتتًا من حنجرة أسيل..

- لماذا قتلت بسيط على كوبري قصر النيل؟

فركتُ أصابعى ومسحتُ عرقًا غزيرًا هاجم وجهى، تكوّمتُ بركن الصالة، لم أستطع أن أبرح وضعى على هيئةِ تمثالٍ من جرانيت.. وخيوط الفزع تملأ وجهه الصامت الجامد على هذا النحو.. مجرد تمثال صخرى.

(15)

لا أعرف كيف اختفت أميرة الفايد، بحثت عنها فى كلّ مكان، "فيلا" التجمع، شقة الشروق، سافرت إلى فندق إيزيس بالأقصر، حتى عيادة الدكتور رمزى المغلقة بأقفال حديدية. اختفت من القاهرة، ربما هربت مع خادمتها أنجيلا، سعاد فى مرات قليلةٍ تحدثت أمامى عن أنجيلا.. الفتاة الفلبينية التى دخلت عالم أميرة الفايد، حتى غرفة نومها التى لم تسمح أن يدخلها رجل، غرفة نوم أسطورية أعدّتها لتكون شيئًا خاصًّا لها وحدها كما أخبرها دكتور رمزى، ربما حاول معها ليدخلها لكنه وجد صدًّا من أميرة، الوحيدة التى تسمح لها بدخولها هى أنجيلا، لم أصدق أن تكون أميرة امرأة سُحاقية تترك جسدها الفائر لأنجيلا، ربما غيرة سعاد منها تجعلها تختلق علاقةً شاذةً كهذه تُلمّح بها فى حديثها لى، الغيرة التى نبشت قلب سعاد الممرضة من أميرة الفايد على رمزى.. ربما دعتها لاختلاق وقائع لم تحدث.. لا أصدق. كنتُ أحاول أن أسير رابط الجأش، أتفوّه بعبارت بذيئةٍ وأنا سائر وقد تهدلت كتفاى بالشوارع التى عمّتها مظاهرات وفوضى عارمة. رحلت أميرة وخلفت طفلها يجوب الشوارع بحثًا عنها، كمجذوب بذقن طويلة وشارب غير مهذب وملابس متسخة، كنت كطفل تائه فقد أمه، لم تقل لى شيئًا فى آخر لقاء جمعنا. لماذا لم أفهم لحظتها وأمرر أصابعى على مؤخرتها وأدعوها لرقصةٍ بديعةٍ مثلما رأيتها ترقصُ فى حضن الدكتور رمزى فى الحفل؟ نفقد دائمًا الأشياء الثمينة ثم نتباكى عليها، كانتْ ترفل أمامى فى فستانها الأزرق المزركش بوردات حمراوات كملكةٍ متوّجةٍ، دعتنى إلى كأس فودكا من النّوع الفاخر وجلستْ أمامى على مقعدها

الهزاز، صارت تروحُ وتجيء.. تقتربُ وتبتعد وقد انحسر فستانها عن ركبتيها، ابتلعت ريقى وتقهقرت للخلف وأنا شبه غائبٍ عن الدنيا، كانت تثرثر كعادتها فى السياسة والصراعات الإيدلوجية، تشتم ببذاءةٍ أسماءً لا أعرفها، تُسمّيهم الأفّاقين تارةً.. وتارةً أخرى تصفهم بالقوّادين، غير أن الأسماء التى تحدثتْ عنها ربما شاهدتُ بعضهم على شاشة التليفزيون يرددون كلامًا مسجوعًا مكرورًا ستجده على كل شفاة.. ربما بنبرةٍ مختلفةٍ وبكلماتٍ مغايرة، الكلامُ المحشورُ فى فم السياسيين تقريبًا كله متشابه. ضحكتْ حين سمعت رأيي وحينها حلّقت حول وجنتيها حمامات زرقاوات، اقتربت منِّى حتى لامست أصابعها شعرى، مرّت أصابعها التى تُشبه أصابع مصنوعة من عجين النور، تباغتها خصلة من شعرها وتقع على جبهتها وتهبط لتغطى عينيها، بادرت برفق وحملتها بين أصابعى، تركتنى أحمل خصلتها إلى خلف الأذن، تملّكنى شعور دافئ بلذةٍ سارت فى أطرافي، هبطت أميرة كعاصفةٍ على جسدى الممسوس برعشةٍ خفيفةٍ وتفتّحت كلُّ حواسي، تمتلك أميرة سحر الأنوثة الطازج، يسكن جسدها منذ بداية الخلق كخمر مُعتّق، أدركتْ أننى الآن فى حالةٍ تسمحُ لها أن تُلقى على مجذوبها بأمرٍ جللٍ كالذى طلبته منِّى... قلتُ وقد خرجت من التيه..

- لماذا لا أفهم؟

- وهل سألتنى فيما مضى كى تحاول أن تفهم الآن؟

- لكنه عاشق.. إنه يحبك؟

- هناك أشياء تفعلها مرغمًا.. لكن يجب أن تفعلها.

كأن غيمة من سواد حطت على كتفى. كانت أروع ما تكون الأنثى حين ضحكت، خلعت حذاءها وطوّحت به فى الهواء، ضغطتْ على

زر الموبايل فاندلعت موسيقى راقصة، هزّتْ خصرها وهى تتمايل مع موسيقى حليم "على قد الريح.. ما يودى الريح.. ما يودى.. وياه أنا ماشي.. ماشي ولا بيدى". أحضرت لها أنجيلا كأس نبيذ على صينية فضّية، تأتى أنجيلا دائمًا فى الوقت المناسب، تعرف ما تريده سيدتها دون أن تنطق به، تابعتها وهى تداعبها، أمسكت بخصرها كأنّها تراقصها، أقلق أنجيلا وجودى، خرجتْ من بين يديها بحجة أنّها تركت شيئًا على النّار، مضت ونظرات أميرة تتبعها. تأملتُ إعصارها المميت.. بركانها العارم، من يملك مصيره أمام امرأةٍ تهدر كشلالٍ فوق رأسك وأنت مجرد قارب صغير؟ هززت رأسي بالموافقة ولم يكن لى أمنية غير أن ألف خصرها بيدىّ، أمرر أصابعى حول استدارة مؤخرتها التى تشبه مؤخرة هند رستم فى فيلم "صراع فى النيل" حين أغوت الساذج "محسَّب"، أهبط على شفتيها الغارقتين فى الحُمرة، أطوِّق شعرها الأسود بيدىّ، حين توقفتُ أمام الباب واستدرت عائدًا، كانت لا تزال ترقصُ على موسيقى حليم.. قلت..

- لو أن أحدهم طلب منِّى أن أقتلك؟

ضحكتْ وهى تضغطُ على زر موسيقى حليم التى سكنت تمامًا..

- لا تتردد.. افعل يا جابر.. هذا هو قانون اللعبة.

- لعبة.. أية لعبة؟ هل تقصدين الشر؟

- لا يوجد شيء اسمه الشر، إنها مجرد لعبة نمارسها جميعًا.

- لعبة يا دكتورة؟!

- كل ما نفعله هنا مجرد لعبة، لا تسجن نفسك فى أفكار سخيفة صكَّها غيرك، اصنع لنفسك أفكارًا وقيمًا تلتزم بها أنت ولا تُلزم بها غيرك.

- معقول؟!

- اسمع يا ونايسي، هل تشاهد اللاعب الذى يصيب زميله فى مباراة؟ سينزف دمًا أو تنكسر ذراعه.. هل ينعتونه بالشرير؟
- لا.. لكنّها مباراة.. لعبة.
- وما أدراك؟ نحن فى هذه الحياة نلعب، كلٌّ بقانونه، ما نفعله ليس شرًّا بل مجرد لعبة عنيفة.
اندفعت نحوى وأمسكت بكفِّى وهى تقول.. "هل أقرأ لك الكف؟ تعلمت هذه الحرفة من رجل هندى، كنّا فى حفلةٍ بالسفارة الهندية بالقاهرة، وجدنا الهندى المسكون بالسحر والغموض، ترك كف فتاةٍ مراهقةٍ اتجهت ناحيته.. واتجه ناحيتى بطريقةٍ أقلقتنى وجعلتنى مرتبكةً، لماذا اختارنى الهنديُّ من بين الحاضرات الكثيرات اللاتى مددن له أيديهن وتزاحمن حوله كأنّه نجم سينمائي وسيم؟ خرج العجوز من بينهنّ بطريقةٍ أراجوزية حيث قفز لأعلى مثل لاعب سيرك وهبط أمامى، قفزته أثارت ضحك الحاضرين، اتجه صوبي.. وبابتسامةٍ ودودةٍ لا أنساها طلب منِّى أن أمد له كفّى، كانت لحيته خفيفةً بيضاء وملامحه هادئة مستكينة، وافقت بشرط أن يعلمنى حرفته، وافق الهنديّ، علّمنى إياها، وحين منحته عشرة دولارات فى المقابل رفض أخذها وطلب أن أراقصه على موسيقى هندية.. وفعلت، ظلّ يُراقصنى لساعةٍ وأنا لا أستطيع أن أخرج من يديه اللتين أحاطتا بي ولحيته تُلامسُ شفتىّ كأنّه يُقبّلنى بنهمٍ، فعل الهنديّ فعلته فى تلك الليلة ومضى لحال سبيله، تركنى وأنا مولعةٌ بقراءة الكف كأنّه بتلك الرقصة التى شاركته إياها أودع ذلك السر المسكون داخله منذ سنواتٍ ونفخه فى روحى، نفخة مسكونة بالغموض والسحر والتعاويذ وتمتمات بلغةٍ هنديةٍ لا أعرفها، أودع الهنديّ تخاريفه لدى ومضى. منذ تلك الليلة

وأنا أمارس تلك الهواية مع البعض من وقتٍ لآخر". سكنت بعض الوقت دون حديثٍ ثم عاودت، كنتُ أعرف أنها ستكمل حديثها لذا لم أشأ أن أُخرجها من تلك الحالة الصوفية التى تمارس طقوسها الآن، أكملتْ بصوتٍ مُغاير يُشبه رتابة بندول الساعة فى تكّاته المتتالية، قالت.. "هناك مَن يعتقد أن قراءة الكف عبث، لكننى أعتقد أنها حقيقة". سكتت برهةً، كانت تنتظر منِّى ردًّا لكن الحروف كلها ماتت على شفتىّ. نظرتْ فى كفّى الذى سكن بين كفّيها فى هدوء، كانت تمر بالسبابة وتتابع خطوطًا مبهمة. فى دلع أنثوى ساحر وهى تعض شفتيها.. وأنا منشغل بفضولى.. قالت "اسمع.. لديك امرأة تحبها". غمزت بعينيها ثم قالت "لكنّها يا خسارة تسبب لك مشكلة". قلتُ ملعون ذلك الهندى، كأنّها تتكلم عن أمى.. صفية. أكملت "إنها فائقة الجمال، يا خلبوص تعرف امرأةً غيري.. وجميلة". كنتُ أُريد أن أفصح لها عن المرأة لكنّ الحروف تثاقلت على شفتىّ، لم أستطع أن أدفعها لتخرج من حنجرتى، مضتْ قائلةً "لديك امرأة أخرى". اقتربتْ من أذنى وهمست "أنت مولع بالنّساء، كل خيوط كفك تشير إليهن". سألت "ومن تكون؟". عدلتْ من وضع كفّى، سارت بإبهام اليد اليسرى بينما تمسك كفى بيدها اليمنى، مرت على أحد الخطوط تمامًا كأنّها تتبعه، حتى غمست إصبعها فى نقطة اشتباكه مع آخر وصرخت "امرأة فائقة الجمال- ليست كالأولى- ستنقذك من مأزق". نطقتُ على مهل "ربما هى أنت تلك المرأة". ألقت بكفّى وقالت فى مكرٍ "لا.. لست أنا، أنا شيء آخر يبعد عن كونى امرأة جميلة، أنا باب السعادة لك.. ومفتاح الجنة، أنا عالمك الجديد ودنيتك القادمة، ليتك تفهم كيف أكون بالنسبة لك، ربما ترانى فقط امرأة جميلة، وكثيرون يرونني كذلك، لكننى

الحياة.. الرغبة.. اللذة التى لا تنتهى، لا فناء معى ولا موت، سيبقى من عشقنى مُعلقًا بين السماء والأرض، لا أروى ظمأه، عندما تعود من تنفيذ مهمتك سأمنحك ما لم أمنحه لرجلٍ قط، ستكون عشيقي لليلةٍ واحدةٍ، سأجعلك ترقى حتى تصل إلى منازل العاشقين وتذوق منتهى اللذة، ليلة ربما بألف ليلةٍ من عمرك القصير، ليلة ستكشف لك الأنثى دنيتها، وستدخل ألقًا لم تجربه، ومتعة لم تدخلها، وجسدًا لا يفتح دهاليزه إلا مرة كل عام، مرة بألف مرة، كأنّك لم تدخل جسد أنثى من قبل". حين اندفعتُ خارجًا استوقفنى صوتها عند الباب..

- أريدها كحادثة، لا أريدها أن تبدو جريمة قتل حتى يتسنى لنا الاحتفال معًا.

لم أجد ملاذًا لجسدى المعذب ورغبتى الجامحة سوى أن أذهب إلى سعاد، هاتفتها، كانت على ما يبدو مشغولةً، رفضتُ كل أعذارها وطلبت منها أن تحضر حالاً إلى شقتى، كان يجول بخاطرى وأن سائر فى اتجاه البيت "ماذا لو كانت أميرة الفايد هى التى فى انتظارى؟". حسدتُ ذلك الهندىّ الذى راقصها فى حفل السفارة. "هل يمكن أن أراقصها ذات مساء؟ بماذا يختلفُ جسد سعاد عن جسد أميرة؟". مصمصت شفتىّ وقلتُ بهدوء "كلهنّ نساء وسعاد ستفى بالغرض". سمع تمتمتى الرجل الجالس بجوارى فى مقعد مترو حلوان، رمقنى بنظرةٍ كأنّه ظن أننى أحادثه، ركاب المترو يتشاجرون بسبب السياسة، الكلام بينهم يدور حول الإعلان الدستورى الجديد، بين مؤيد يرتفع صوته قائلا "كان مُجبرًا على إصداره". ومعارض يصيح غاضبًا "إنَّ الإعلان الدستورى الذى أصدره الرئيس باطل". احتدم الجدل حتى وصل إلى الاشتباك بالأيدى، انفرطت مسبحة المؤيد ذى اللحية القصيرة وتقافزت حبَّاتها فى العربة،

الكلُّ انشغل فى جمع حبّاتها الكريستال من أرضية عربة المترو. عدتُ بخيالى وأنا أدير المفتاح فى الباب "ربما تكون قد وصلت قبلى فقد توقف المترو كثيرًا، مرة بسبب إضراب عمال المترو، ومرةً بسبب انقطاع الكهرباء". شعرنا بالاختناق وسكن المتشاحنان بمجرد توقف المترو، عرج الحديث بعيدًا عن السياسة، لم يعد شيء فى القاهرة منتظمًا، النّاس لديهم غضب مكتوم. حضرتْ سعاد بعد نصف ساعةٍ تقريبًا، اعتذرت عن التأخير، لم أبال بحديثها الكثير عن الزحام فى الشوارع وعن البلطجية الذين يستوقفون النّاس كرهًا فى أى مكان- حتى فى الطرق الرئيسية- ويجبرونهم على إخراج كل متعلقاتهم، كانت غاضبة، واصلت حديثها بضيق.. "هؤلاء الذين فرّوا من السجون وملأوا القاهرة.. يخرجون فى وقت الظهيرة ولا يبالون بعد الفراغ الأمنى". أدهشها سكوتى، لم أعلق على حديثها. تململت من برودى، قلتُ كلامًا معتادًا مكرورًا حتى أبدو مُهتمًّا بحديثها الروتينى. قالت "سيكون سائغًا أن يستوقفك أحدهم فى عرض الطريق، يضع سلاحه على رقبتك ويطلب منك أن تفرغ ما فى جيوبك". قلت لها "ليسوا كلصوص الأمس حين كانوا يخرجون ليلاً يبحثون عن فرائسهم". المدهش أن هذا يحدث الآن فى الظهيرة ولن يقف أحد من السائرين إلى جوارك لنجدتك، سيكتفى بإلقاء نظرةٍ عابرةٍ آسفةٍ على الضحية وسيمضى إلى حال سبيله دون أن يفكر فى نجدتك، سيمنحك فقط نظرة شفقة هى كل ما يملكه. وقعت لى حادثة كتلك، استوقف أحدهم الميكروباص الذى كنت أستقله على الدائرى وراح يهددنا بسنجةٍ طوَّحها فى الهواء بمهارةٍ أمام أعيننا، جعلت كل الركاب يخرجون ما فى جيوبهم ويلقونها خارج الميكروباص، أذعنتُ يومها مثلهم، جرّبت إحساسًا لم أجربه، حين تصبح ضحيةً، حين تستسلم لأمر

بلطجى محترف يُمسك سنجة ويطوّحها فى الهواء ليثير الرعب فى نفوس الناس، ربما يطيح برقبة امرأة من أجل الحصول على بضعة جنيهات قليلة، أو فردتى حلق تزينان أذن طفلة صغيرة ستفقد حياتها من أجل أربعة جرامات من الذهب، ساعتها عرفتُ لماذا تستسلم الضحيةُ بين أيدينا. لم أرد على ثرثرتها. انتظرتُ حتى أعدّت الطعام، فراخ مشوية بجوار سلطة خضار، أكلتُ حتى شبعت، شربت زجاجة بيرة مثلجة وبحثت فى حقيبتها، وجدت شريط ترامادول، ابتلعت واحدة، رأسي دارت وشعرتُ بثقلها، ذهبتُ إلى السرير، غفلت عيناى، كانت تحدثنى وهى تنقل بقايا الطعام والأطباق إلى المطبخ، شعرتْ بغيابي، قالتْ وهى تمط شفتيها كعادتها فى الحديث "اللصوص اختلطوا بالثوار، والاشتراكيون الثوريون مع الناصريين والشيوعيين، الطرق مزدحمة، لم نعتد سماع دوى طلقات فى سماء القاهرة القديمة، ما الذى جرى؟".

كنت فى منزلة بين النوم واليقظة.. صوت الشخير بدأ يتعالى.. سمعتها وأنا فى غيبتى كأنّها تتحسر..

- هل أحضرتنى إلى هنا لكى تأكل وتنام وتشخر؟ يا للحسرة، يا خسارة الفراخ المشوية التى تعبت في إعدادها؟

كنت مشغولاً فى المهمة الصعبة التى طلبتها منِّى أميرة الفايد.. وكيف أستعد لها.

(16)

لستُ شريرًا يا أسيل كما تظنين، لستُ سوى قطعة شطرنج، هل يمكن أن تُحاكمى قطعة الشطرنج لأنّها أكلت قطعةً أخرى؟ أصحاب الياقات البيضاء والعربات الفارهة والأفكار الكبيرة التى لا ندرك كنهها، لا نعرف معناها، يضحكون على البسطاء فى هذا العالم، البسطاء مُسيّرون، نتحرك وفق قانون غامض لا نعرفه، نتحرك صوب أهدافٍ لم نضعها لأنفسنا، وضعت لنا من قِبل قوى خفيّة تهيمن على هذا العالم، تمتص رحيقنا، تدفعنا إلى الشوارع المزدحمة، نتجاذب ونتعارك، يقتل بعضنا بعضًا دون أن نفهم، هم من يحركون قطع الشطرنج، تعرفين أن لعبة الشطرنجهى لعبة العظماء والملوك، أنا مجرد مُدية فى يد قاتل محترف، مجرد عربة ميكروباص طائشة تتحرك بيد سائقها لتقتل مخلفةً غبارًا كثيفًا، مثلما قتلت الدكتور رمزى بأمر من أميرة الفايد، ربما تكونين مُحقّة، ربما أكون من قتل "أحمد بسيط"، كنتُ مثل فيل الشطرنج حين تحركت على الرقعة، دهستُ كثيرين فى طريقي، ربما يكون بسيط واحدًا من الضحايا الكثيرين فى زحام المظاهرات، كنتُ أُمارس اللعب بقانونى، سيكون فنانك هو الشاب الذى سأقتله هناك عند كوبري قصر النيل بسكين عريض، أشق بطنه وسط الزحام.. أو أطلق عيارًا ناريًا من فرد خرطوش من فوق بناية عالية، كل المواصفات التى تذكرينها عن شاربه الأنيق وطيبة قلبه وملامحه المنمنمة ووجهه الصبوح.. لا أعرفها، القاتل لا ينشغل بملامح الضحية، الفتى النّحيل الذى حلم بعالم من الفضيلة، مكث سنوات يرسم فتاته كأنّها وطنه، روحه مثل سحابةٍ بيضاء تحتضن المدينة برفق، تحلم بعالمٍ أفضل، عيناه الصغيرتان اللتان ترقدان خلف النظارة ترصدان

الجَمال وتزيلان القبح، كان طيبًا إلى حد أنه تخيّل مدينتا كلوحةٍ يمكنه أن يبنى داخلها الجمال يزيل القُبح بفُرشاته. هذا خيال فنان طيب، العالم خارج اللوحة مُعقّد، لا يمكن التعامل معه بفرشاة، ربما لو شاهد بسيط طفل الونايسة الذى يخرج كل يوم مع بزوغ الفجر، يجرى فى شوراعها وأزقتها حافيًا، يرتدى الجلباب الكستور المقلّم، يصرخ على أمه صفية.. لغيَّر رأيه، كان الطفل يوشوش الحوائط القديمة علَّها تدله على مكان أمه التى تركته وحيدًا، النسوة فى الونايسة يمصمصن شفاههنَّ حسرةً وألمًا وهنَّ يشاهدننى أجرى ناحية الجبل، عندما يعاقب الله الشيطان على أفعاله الشريرة سيعاقب أيضًا صفية لأنّها تركت صغيرها للشيطان الذى يسكن الجبل، يُرضعه كراهية النّاس ويمنحه تعلم الشر دون مقابل، هل كان بوسع بسيط أن يمحو بفرشاته كل هذا الألم الذى سكن روح طفل الونايسة؟ هل يمكنه أن يرسم الآن لوحةً جديدةً لطفلٍ يعانق أمه، يقبّلها بجنون، يتحرك داخل حضنها الواسع على راحته وهو لا يخشى شيئًا؟ أُريده أن يرسم حضنها الواسع على أنّه السماء، وأن يضع على وجهها قطرات من ماء المطر، أن يغوص فى ملامحها ليخرج وجهًا طازجًا بدون أوجاع، ليس بوسعى الآن أن أتذكر شيئًا من أوجاعي التى تُثقل كاهلى، تمزق روحى، الأوجاع التى تُشبه جُرحًا غائرًا فى الجسد لا يشفى، ينزف دمًا أسود بلون شال النسوة العجائز فى الونايسة، يرقدن بجوار الأبواب، فقدن كلَّ الأحبة، لم يبق لهنَّ سوى ذكريات يروينها للصغار، أزواج يسافرون للخارج.. بعيدًا عن حضن زوجاتهم، للعمل من أجل لقمة العيش، لقمة العيش التى لا تأتى إلا بالألم والبُعاد. الدولة تقسو على النّاس، تتركهم لمصائر مجهولةٍ بينما هى لاهية فى مطاردة الصغار الذين يحملون أحلامًا فى قلوبهم. كنت أسمع أنين الفراق حين ألصق جسدى بباب إحدى نساء الونايسة وهى تبكى بلا دموع بعد أن جفّت الدموع فى المقل، كنت وقحًا

فى تلك الليلة يا أسيل حين هممت وجرحت مشاعرك المرهفة وأخرجت اللوحة، اللوحة التى تُخبّئينها خلف المكتبة، المرأة العارية التى تضيء لوحة بسيط بجسد مرمرى مثل شمس زاهية. قلتُ لك يومها كلامًا جارحًا ردًّا على إهانتك المتكررة لى، حين قذفتِ بفنجان النسكافية فى وجهى وتناثرت بقاياه على جسدى، ما ذنبي؟ أنا لا أفهم فى السياسة، لا أُفرّق بين الأبرياء والمذنبين، أنا مجرد فيل شطرنج يتحرك فى كف لاعب ماهر. ربما تخيلتك امرأةً ماجنة رقدت أمام عاشقها بكامل أنوثتها عاريةً فرسمها. أسيل أعطت فنانها كل ما تعطيه الأنثى لرجلٍ تحبه، قلتِ لى إنه حين تمدد جسدك أمامه عاريًا لم يكن يرى جسدًا لأنثى فاتنة، لم يكن يراها مجرد جسد أنثوى يشتهيه رجل، جسد يمتلئ بالسحر والنشوة والرغبة، بل كان يراه جزءًا من جمال كلى، قطعة فنية تنتظم فى جمالٍ أعظم وأروع، مثلما يفعل صانع الأرابيسك حين يضم الجزء الصغير إلى الكل ليكتمل الجَمال، لا يكتمل الجَمال إلا بضم الصغير إلى الكبير، بضم البعض إلى الكل، قالت وهى تهمس لى "الجسد الممد أمامك عاريًا فى اللوحة ليس جسدى كما تظن، بل هو جسدٌ لأنثى أخرى، رآها فنان مثل بسيط، جسدى وصل فى تلك اللوحة إلى اكتمال جماله حين كان يقبّل فنجان القهوة وهو يمده لى فأرشف من موضع شفتيه، أجد نكهةً لم أذقها من بعده، مثلما تغمض عينيك وتطلق نفسك للخيال، جسدى صار ملكه، فك قيد روحى وأطلق جسدى للريح، كان يفعل به ما يشاء كساحرٍ هندى عجوز يمتلك أسرار سحر بابل، لست عاريةً بل مرتدية من جماله. "هل تظنين أننى أُقدّر تلك النظريات التى ردّدتها من قبل أميرة الفايد حين وجدتنى مشدوهًا أمام لوحةٍ لامرأةٍ عاريةٍ فى الأوبرا؟ لم أستطع حين رأيت المرأة عارية فى لوحتك المخبأة سوى أن أجلس فى حضرة جسدك الفاتن، أُخرج ما بي من نشوة، سارت كشرارةٍ، تلهبنى، انتفضت حتى أخرجتُ ما

بي على رجفةٍ، غبت لثوانٍ عن العالم وأنا أنظر فى لهفةٍ بعد أن تخلصت مما انتابنى، شعرت بنعاسٍ خفيفٍ دبَّ فى أطرافى بعد أن أفرغت رغبةً جامحة. أقول هذا ولا أخجل، الجسد له سطوته، الجسد الملفوف بسحر عجائبي يفتت صلابة الرجل، يجعله سكيرًا يترنّح فى فراغٍ باتساع أبدى، ينتفض كأنّه ممسوس بسبعة شياطين، يتسرّب النمل فى الضلوع كأنّه الترامادول، يذوب فى دمى، أنا كما أنا، لم أتخل عن أفكارى الريفية التى جلبتها معى من الونايسة، حملتها فى حقيبة ملابسي، أحضرتها معى إلى القاهرة، باقية محفوظة تحت جلدى، ليس من السهل أن يتخلى المرء عن أفكاره القديمة حتى وإن ادّعى ذلك، هذا هراء، ربما نفعله مجبرين فى بعض المواقف، نجامل، نتحدث بما لا نعتقده حتى نبدو أمامهم أننا منفتحين ونقول كلامًا عن الحرية الشخصية، لكننى وللحقيقة ساعة أن رأيت المرأة التى تشبهك داخل اللوحة وصمتك بالغانية. هل تظنين أن رجلاً مثلى أو مثل فتحى القبّانى حين يشاهد لوحة لامرأة عارية سيفكر فى تلك النظريات الفنية التى يرددها نقاد بلهاء، أم أنه سيصف تلك المرأة بأبشع الصفات؟ الريفيون لا يقيسون الأمر كما تفهمونه هنا فى القاهرة، المرأة لدينا فى الونايسة توارى جسدها عن النّاس كما يوارى أحدنا عورته، فى الونايسة يعتقدون أن الشياطين تسكن جسد المرأة الجميلة، الشياطين تحثّنا على الخطيئة، لو أن أبليس قبِل أمر السجود لم يكن هناك شر فى هذا العالم، كنا سنعيش أنقياء مثل ملائكة طيبة، لكنه أبى أن يطيع مثل ليليث وذريتها.. إنكوبي وسوكوبى. للشهوة الجنسية.. فإن سوكوبى تضاجع الرجل من أجل تلقيح نفسها، حتى يمكن أن تتوالد الشياطين. وإنكوبي تضاجع النساء لتضلهم وتلقحهم ببذور الشيطان.

بعربةٍ ميكروباص على طريق الإسماعيلية انحرفتُ بسرعةٍ عاليةٍ على سيارة الدكتور رمزى، خلفت السيارة الميكروباص غبارًا كثيفًا يمنع الرؤية،

بعد تبدد الغبار تظهر سيارةُ رمزى مقلوبةً على جنبها، وقد صار هو جثةً هامدة، تسيلُ الدماءُ من أنفه وفمه ورأسه مهشمةً تمامًا، يداه ممسكتان بمقود السيارة، رأسه مال على كتفه الأيمن. ما أسهل القتل هذه الأيام فى شوارع القاهرة.. والفاعل دائمًا مجهول، لن يحقق ضابط مباحث فى حادثة سير عارضة ربما تحدث كل يوم على الطرق، لن يعطيها أكبر من حجمها، آلاف البشر يُقتلون كل عام على الطرق غير الصالحة للسير، كضابط مباحث ذكي ومحترف سيفكر أن الدكتور رمزى كان سكرانًا أو أنّه كان يقود سيارته الـ "بي إم" بسرعةٍ جنونيةٍ واختلت عجلة القيادة فى يده، أو ربما ينتهى تصور وقوع الحادث الذى سيكتبه الضابط أن سائقًا طائشًا تناول حبوب الترامادول وارتطم به، ربما استوقفه بلطجى على الطريق وطلب كل ما معه ثم انهمر على رأسه وهشمها مستغلاً الفراغ الأمنى، لن يفكر أحد فى أن ما جرى فى "فيلا" أميرة الفايد مساء الجمعة الماضية هو سبب الحادث، يومها رأيته يطوّح الأوراق فى وجه أميرة، كان منفعلاً وقد تخلّى عن هدوئه المعتاد. الفضول قتلنى، نظرتُ من فتحة الباب، رأيته يقبض بأصابعه الخمسة على كتف أميرة بعد أن طوّح فى وجهها الأوراق، جذبها ناحيته ثم همس لها بكلمات لم أسمعها، لكننى رأيت أميرة تبصق فى وجهه، تنزع ذراعها من قبضته، كانت هناك رغبة مُلحة تدعونى للتدخل والانقضاض على الدكتور رمزى لأوسعه ضربًا، لكننى فى اللحظة المناسبة قررت التراجع، أخرجنى صياحه من ترددى فى التدخل، قال بلهجةٍ سينمائيةٍ متعجرفة..

- "تريدننى أن أضع يدى فى يد الخونة، لن أفعلها. أفيقي قبل فوات الأوان، هؤلاء خونة يتلقّون تعليماتهم من الخارج.. ويتلقّون أموالا.

ضحكتْ أميرة الفايد، صفّقتْ له بسخريةٍ كأنّه يؤدى مشهدًا تمثيليًّا مُصطنعًا..

- تظننى أصدقك يا دكتور، هل نسيت أنّها السياسة التى تعلمناها؟
- إنّها خيانة، يجب أن نسمى الأشياء بأسمائها الصحيحة، لن ألعب معكِ هذه اللعبة القذرة يا أميرة، سوف أفضحكم فى الجرائد والإعلام، سوف أظهر فى برنامج "العاشرة مساء" على قناة دريم مع المذيعة منى الشاذلى وسأقول كل شيء.
تركها الدكتور رمزى، تركها غاضبةً غارقةً فى حيرةٍ ومتاهة، لا تعرف ماذا تفعل؟ ربما من المرات القلائل التى رأيت فيها أميرة الفايد حائرةً، حاولتُ أن أدخل، طرقت طرقات خفيفة بعُقلة الوسطى. نهرتنى، طلبت منِّى أن أنصرف. ما الذى قاله الدكتور رمزى وأغضب أميرة إلى هذا الحد؟ هذا المخبول، كيف يعكر صفو امرأة مثلها؟ كانت تقف أمامه مرتدية فستانًا رومانيًّا بكتف مفتوح وصدر يوشك أن يبرز نهديها الجالسين مكانهما فى شموخ كنمرين شرسين. المخبول كان عليه أن يطيع المرأة التى تجلس فى عرشها كربة جمال أسطورى حتى لو أمرته أن يخطف أطفالاً من يد أمهاتهم، أو أن يقتل شبابًا فى الزحام، حتى إنّه سيقودُ سيارةً ميكروباص ويسير بها بسرعةٍ جنونيةٍ مخلفةً وراءها غبارًا كثيفًا وسيارة "بي أم" مقلوبةً وطبيبًا مُهشّم الرأس، لن يستطيع أى محقق مهما كان كُفئًا أن يصل إلىّ، لم أكن غبيًّا حتى أترك شيئًا يدل على شخصيتى، أعرفُ أنّه لا توجد جريمة كاملة، لن يعثر أحد على شيء من متعلقاتى فى مسرح الجريمة، الخطأ الوحيد الذى ارتكبته وأطاح بي ولم أسامح نفسي أبدًا أننى فعلت، كنتُ نائمًا فى حضنها وهى تلف جسدى بجسدها المحشور فى قميص نوم وردى يكشفُ عن تفاصيلها، بعد أن احتسيت زجاجتي بيرة مثلجتين وابتلعت حبتي ترامادول، أخذتهما من حقيبتها، فى هذه اللحظة دون أن أدرى حكيتُ لها ما جرى، لم تكن سعاد.. كانت امرأةً أخرى تُشبهها حين مكثت تبكى وتلطم وجهها، تضرب رأسها بكفّيها،

ارتديتُ الشورت والتيشرت سريعًا وجلستُ على حافة شرفة البلكونة، دموع كثيرة نزلت، بللت وجهها، قامتْ فى غضبٍ وأشعلت سيجارةً، نفثت دخانها فى فضاء الحجرة، ثم ألقتها فى الطفاية وضغطت عليها، تسرّب منها دخان قليل قبل انطفائها كأنّها تنازع النهاية، خلعتْ قميص النّوم المبلل بعرق غزير هاجمها، ذهبتْ إلى الحمّام، عادت مرتديةً عباءة سوداء، تنبّهتُ للخطأ الذى ارتكبته، لمتُ نفسي وضربتُ رأسي بقبضةٍ قويةٍ فأصابنى الدوارُ، كدت أسقط من على حافة الشرفة بعد أن اختل توازنى، لفّتْ شعرها بإيشارب بُنّى ومسحت الأحمر عن شفتيها فبدتا ذابلتين وخدودها تميل إلى السمرة، أول مرة ألاحظ خيوطًا رقيقةً وندبات برءوسٍ سوداء حادة على وجنتيها، أول مرة أرى وجهها دون مكياج، أنفها بدا أكثر عرضًا وانتشر النمش على جبهتها، ملامحها تكتسي بشراسةٍ لم أعتدها، يخالجنى إحساسٌ بالقلق لم أشعره من قبل مع سعاد، فى عينيها حُمرة وحدّة، عقدت جبينها فارتسمت خطوط بعرض الجبهة، رفعت أحد حاجبيها لأعلى كأنّها نمرة تستعد للهجوم على فريستها، تراجعت للخلف خطوتين، حاولت أن أتخلص من أحاسيسي المتناقضة، رفعتُ زجاجة البيرة، ألقيت ما تبقّى فى قاعها من الأمس فى جوفى، لم يكن لدى رغبة فى احتساء البيرة الآن ولكنى لم أجد ما أفعله وهى على تلك الحالة، ألقتْ فى وجهى بنطالى الجينز الأسود ولملمت علب السجائر والولاعة وحافظة نقودى الموضوعة على الكومودينو بجوار السرير، فهمتُ أنّها تريدنى أن أغادر الشقة الآن، لم أصدق يومها ما جرى، طردتنى من شقتها وهى شبه منهارة، انتفضت كنمرةٍ شرسة، لم أستطع أن أقاومها، لعنتنى وشتمتنى بألفاظ بذيئة وشتمت أهلى، قالت إنّها لا تستبعد أن أقتلها إن أمرتنى أميرة، قالت "فتنتك الساحرة الشريرة، جعلت منك رجلاً أبله، نبّهتُك إلى شرّها، قلتُ لك إنّها ساحرة شريرة تسحر الرجال، انتبه يا

ونايسي لتعاويذها. لم تستمع، وربما تحبها مثله، حذّرته منها، قلت له لا تُسلّم ذقنك لأميرة يا دكتور رمزى، لم يستمع، تركنى وضحك". حاولتُ أن أصمد.. لكن أمام طوفان الغضب الذى اجتاحها لم أتمالك نفسي، خرجتُ من شقتها، لم أجد رغبةً فى العودة إلى شقتى بعد كل ما جرى، لن أتحمّل الوحدة، أجر قدمى على كوبرى قصر النيل، أتلقّى نفحات الهواء البارد الآتية من على سطح النهر، أبتسم ابتسامةً خفيفةً حين أتذكر مشهدى وأنا أحشرُ رجلى فى البنطلون فأقع على الأرض وهى تدفعنى لأخرج، أقف للحظات، يرمقنى صبي.. يتردد فى المجيء إلىّ، أشير له، يحمل كوبًا من حُمّص الشام المشطشط، يتصاعدُ منه البخار، أتلقفه بين يدىّ الباردتين، أحضر لى الصبي كرسيًّا لأجلس قبالة النيل وهو يتدفق بمياهه الداكنة، أتابعُ سير إحدى المراكب الشراعية، تتحرك بهدوءٍ على صفحته دون أن تحدث صوتًا، كان ولدٌ يُطوّق بذراعيه فتاةً بينما المراكبي ينظر بعيدًا لأفق ممتد، ربما بحث الولد عن مكان آمِن لكى يُفضى للفتاة بمشاعره، لم يجد سوى النّهر، ربما تنفك عُقدة لسانه ويقول لها كلامًا رومانسيًّا، مشهد ناعم وسط كل هذا الضجيج، القاهرة تحمل كل المتناقضات، هذان المتشنجان اللذان يقفان إلى جوارى.. متى حضرا، لم أشعر بهما إلا توًّا وهما يتشاجران فى السياسة، لماذا لا يتخلى هذا المخبول عن سلاطة لسانه ويمسك بيد فتاته ليقرأ لها الكف، ينظر فى خطوطها كما فعلت معى أميرة، ربما تكون شعوذة أو تخاريف، لكن كما قالت لى أميرة يومها "يجب على كل منا أن يصنعَ لنفسه أفكارًا، أفكار تكون له وحده، يُسيّرُ بها حياته، أفكار تمنحه السعادة، ليس مُهمًّا أن تكون مثاليةً أو عظيمةً أو مُعقدةً كأفكار الفلاسفة، قد تكون بسيطةً وتافهةً وشريرةً، المهم أن تكون له وحده، لا يجب أن تشبه أفكار الآخرين، لكنّها وصفته السحرية للحياة". مع آخر رشفة من كوب حُمص الشام البلاستيك طوَّحته فى

الهواء، تابعت سقوطه بعيدًا على صفحة النهر. كانت المركب الصغيرة التى تحمل الولد والفتاة قد غابت تحت ظل الكوبرى، وكان الولد المتشنج بأفكاره مايزال يصرخ فى وجه البنت بكلماتٍ رددها قبله رجل ذو بشرة بيضاء مُشرّبة بالحُمرة ويضع نظارةً بشنبر ذهبى أو مطلى بالذهب لا أدرى، كانت المذيعة الأنيقة تنظر له بشغفٍ، كان يحكى لها مراهقته مع فتيات باريس وكيف كان يُبدلهن كرابطات العنق، يتزين بهنّ فى محافل باريس، ثم يمط شفته السفلى ويقول إنّه يُريد لمجتمعنا أن يتغير ويصبح أكثر انفتاحًا على الثقافات. لم أصدق ردة فعل سعاد على مقتل الدكتور رمزى، قلت "ربما تحبه.. بل هى تحبه. كيف فاتنى هذا؟!". أدركتُ مدى تهوّرى حين أبلغتها، كيف غابت عني الحقيقة؟ كل أفلام الأبيض والأسود القديمة كانت تتحدث عن ممرضات أحببن الأطباء، يالى من مغفل، كيف لم أفطن إلى هذا؟ كان الدكتور رمزى يشاركنى جسد سعاد دون أن أدرى، رائحة برفانه التى تعلق بجسدها، صارحتها ذات مرة بهواجسي تلك لكنها سرعان ما نفت، كنت أراها وهى خارجة من باب حجرة الكشف تعدل هندامها وتسوّى شعرها، تمسح شيئًا من على رقبتها.. ربما بقايا لعابه عندما يُقبّلها. حين تأكد ظنى صارحتها، قالت يومها "الدكتور رمزى سكران، ليس فى وعيه، لا تغضب من تصرف سكير، يفعل معى أشياء بسيطة، لم يكن فى وعيه، مجرد رجل سكران يتحرش بامرأة، لا تعطى للأمر أكبر من حجمه، المرأة الفقيرة مثلى عليها أن تتقبّل سخافات صاحب العمل". قررت أن أعود أدراجى لأواجهها لكن سرعان ما استبعدت الفكرة بعدما تذكرت بركان غضبها الثائر، آثرت السلامة، ذهبتُ إلى شقتى لأنام، المجنونة فعلت ما لم أتوقعه أو يخطر لى على بال، حين هممت أن أنام بعد ليلة عصيبة كانت الطرقات على بابي عنيفةً وقويةً، حاولت أن أتجاهلها فلا أحد يزورنى هنا سوى سعاد، سعاد لن

تأتى الآن، كانت تبكى من أجل فراق طبيبها وعشيقها، مسكينة.. هل تظن ان الدكتور رمزى يبادلها الحب؟ غبية لم تفهم أن واحدًا مثله ظلَّ يلهث خلف أميرة الفايد حتى قتلته، كان يندفع بحنق نحو نهايته دون أن يدرى، كدُبٍّ أعمى يسير طمعًا خلف فريسته حتى يسقط فى الشرك، ربما أكون مثله، انتابنى إحساسٌ بالقلق، قرصان من الترامادول أدخلانى فى خمولٍ وتيه، تتراقصُ فيه الحوائط على موسيقى "إنت عمرى" لأم كلثوم، تُخرجنى تلك اليد التى تعاود الطرق بشدة، ربما كالعادة غريب يطرق بابى ليسأل بالخطأ.. ثم يعتذر ويمضى، من عساه يأتينى؟ كانت الطرقات تعلو ولم يكن هناك مفر من فتح الباب، ربما كان عطية منصور أرسلته أميرة ليبلغنى شيئًا، قمتُ متثاقلاً أجر قدمى وأردد كلمة "حاضر، حاضر" بصوتٍ عالٍ حتى يكف الطارق عن ملاحقتى بطرقه العنيف المتكرر، حين فتحت الباب صعقت، ضابط وأربعة جنود يحملون سلاحًا. تأكد أننى فعلاً جابر الونايسي، حملونى إلى قسم العمرانية دون أن أعرف السبب، حتى أتى ضابط المباحث ليلاً، أدركتُ ما فعلته المجنونة سعاد، كم كنت ساذجًا حين صارحتها بفعلتى، أبلغتْ عنى، ذهبتْ إلى قسم شرطة العمرانية وأبلغتْ المجنونة عنى، اتهمتنى صراحة بقتل الدكتور رمزى، النيابة أمرتْ باستخراج الجثة وانتداب الطب الشرعى لتشريحها. جرى التحقيق معى وأمرت النيابة بحبسي أربعة أيام احتياطيًّا على ذمة التحقيق.. انتظارًا لتقرير الطب الشرعى بعد تشريح جثة الدكتور ومعرفة سبب الوفاة، وطلبت النيابة تحريات المباحث.

جرى التجديد لى خمسة عشر يومًا أمام قاضي المعارضات مرةً بعد أخرى، ودخلتُ السجن لأول مرة فى حياتى.

هامش

ربما أكون مُصابةً بالفصام، فى غيابه الذى طال كنتُ أتخيل ملاكًا يحط بجناحين على شقتى، ملاك يُشبهه لكنَّه يتلصصُ على جسدى ليلاً، يُشعل أنوار الصالة، يشعل السيجارة البُنيّة، وينفث دوائر الدخان، ينتابنى إحساس بالعطش، أحاول أن أقوم.. أعجز، جُنَّ جنونه، صار يهذى، يُريد أن يخرج، سيلطمنى على وجهى ويفتح الباب، لا يطيق السجن داخل الشقة، يتفاقم إحساسى بالعطش، أفتح الثلاجة، الضوء الخارج منها يلف جسده المتكور على أرضية المطبخ ويطرح ظلَّه على الحائط المواجه. يصحو فجأة، كان عصبيًّا، حاولت تهدئته، هاتفت مروة عزيز وأنا أحدثها عمّا يجرى، بكت فجأة وانهارت فى نوبة بكاء لا أعرف سببها، طلبت منىِّ أن نذهب إلى كافيه زمان لندخن الشيشة، ألفتُ انتباهها إلى حظر التجول، قاطعتنى لتخبرنى أن الحكومة عدّلت مواعيده.. سيبدأ متأخرًا، سيكون أمامنا الوقت الكافى للحديث وشرب الشيشة والنسكافية والتجول على النيل. خرجنا سويًّا لنستعيد لحظات السعادة على كافيه زمان بشارع البحر الأعظم، لحظات مخلوطة بدخان الشيشة ورائحة النسكافية وهواء النيل العابر إلينا من الناحية الأخرى، أخبرتنى برغبة شريف بهجب فى الزواج منها، طلب منها أن تذهب إلى مصممة الأزياء الشهيرة "سالى"، حدَّد لها موعدًا معها لتأخذ مقاسات فستان الزفاف. حاولتُ أن أبدو سعيدةً أمامها، ضحكتُ على نِكات مروة الفجّة وقفشاتها المازحة، لم أنتبه حين ضغطت على كفّى تنبهنى لرنين هاتفى داخل حقيبتى، لم أرد، وقفتُ بعصبيةٍ لفتتْ انتباه مروة، صرختُ على النادل كى يحضر الشيك للحساب، أصرت مروة على

أن تدفع. حضر النادل، أخرجت مروة من حقيبتها الجنيهات ووضعتها مع شيك الحساب، طلبت بإلحاح أن أكون إلى جوارها وهى تختار موديل الفستان، وافقتها واتفقنا على موعد، طلبت منها أن تعود معى.. تقضي معى هذه الليلة، اعتذرت وهى تضحك "لا أريد أن أكون عزولاً فى ليلة قمرية كهذه الليلة". تضغط على شفتها السفلى بمكر أنثوي "اسمعى.. ثبت علميًّا أن للقمر تأثيرًا على القدرة الجسدية للرجال". لا أعرف بماذا أرد عليها. فتحتُ باب سيارتى الأكسيل وركبت، قعدت إلى جوارى تثرثر عن حياتها القادمة مع شريف بهجت، تحكى كأنها فراشة طائرة، حدثتنى عن رغبتها الأكيدة فى الإقلاع عن شُرب البيرة والكف عن تدخين الشيشة، بدأت تُلقى علىَّ بعض نصائح الأمهات عن ضرورة الكف عن "الصرمحة" والسهر. حلمت بزوجٍ وأسرةٍ وولدٍ جميلٍ ستسميه "بسيط". انتزعت منِّى ضحكةً وأنا أضغط على دواسة البنزين لأسابق أحلامها الطائرة، كل ما أخشاه أن يفيق ويعرف الحقيقة، لن أضمن ردة فعله، ربما يلطمنى لطمة قوية ويغادر على الفور، اللعبة شارفت على نهايتها.. يجب أن أكون حذرة من الآن.

(17)

فى السجن لم يزرنى أحدٌ سوى عطية منصور، كان يزورنى بانتظامٍ، أعرف أنَّه يفعلُ بتعليماتٍ منها، كل زيارةٍ كان يحملُ معه طعامًا فاخرًا، مرةً يترك لى فراخًا مشوية مع سلطات وعلب الطحينة، ومرة يُرسل لى كباب مع سلطة بابا غنّوج. ترك لى مبلغًا كبيرًا من المال فى كانتين السجن كى أطلب ما أشاء من مشروبات أو طعام أو سجائر، فى الزيارة لم يكن كما عرفته.. كان قليل الكلام، لم يدُر بيننا حديثٌ ذو بال، فقط كنَّا نتذكر حكايات رجب العجلاتى وزوجاته، نضحك على قفزاتى فى الهواء كأرنب برّي مذعور، أُسرع بالهرب والعجلاتى يُلاحقنى بجلدة الكاوتش والمفك، يُريد أن يضربني. تنتهى الزيارة بوداعٍ روتينى وكلمات معتادة، أرقد طوال اليوم كسلحفاةٍ عجوز لا تتحرك. تعرّفتُ على خميس عز الرجال، كان يشاركنى طعامى مقابل أن يُوفّر لي الترامادول، خميس تاجر عملة شهير من المنيب، قُبض عليه بوشايةٍ من صاحبه، حُكم عليه بخمس سنوات وتم مصادرة الدولارات المضبوطة، الأزمة الاقتصادية جعلت الدولة تُطارد تجار العملة، كان السوق رائجًا أمامهم؛ فالطلب على الدولار يتزايد والبنوك لا تستطيع توفيره لعملائها، داخل السجن لا قيمة للدولار، العملة الرسمية داخل السجن هى خراطيش السجائر، يُمكنك شراء ما تشاء مقابل السجائر، عملية تبادل تُشبه ما كان يقوم به النَّاس قبل اختراع العملات. ظللت أنكر كل صلة لى بالحادثة سواء فى تحقيق الشرطة أو تحقيق النيابة، بقيتُ محبوسًا على ذمة التحقيق فى انتظار تحريات المباحث الجنائية وتقرير الطب الشرعى، فى السجن فكرتُ طويلاً فى سيرة امرأةٍ مثل أميرة الفايد. تُرى.. هل تفتقدنى؟ أم

أكون مجرد رجل مر في حياتها مثل عشرات غيري، لن تُبالى بسارقٍ وقاتلٍ مثلى. وحدتى بين جدران عالية جعلتنى أفكر.. كيف تكون نهاية امرأة مثل الفايد؟ لن تكون نهايتها عاديةً، نهايتها ستكون مُزلزلةً، نهاية تليق بامرأة مثلها تمتلك مؤخرة لينة كوسادة محشوّة بريش نعام، هذه المؤخرة الرائعة وهبتها ذكاءً فائقًا. دراسات علمية تحدّثت عن نسبة الذكاء المرتفع للنّساء اللواتي يملكن مؤخّرات جميلة، خاصّة وأنّ الدهون المتراكمة في هذه المنطقة تحديدًا وفي الوركين غنيّة بالـ دى إتش إيه- حمض الدوكوساهيكسانويك- وهي مادة مُهمة للدماغ البشري. أميرة سيقتلها ذات يوم شخص مجهول مثلى، أحبَّها وهى تضحك من سذاجته وريفيته، كيف يتجرّأ ويتمنَّى جسدًا مثل جسدها، ربما لن يشاهدها إلا عبر شاشة السينما فقط، وتظل تداعب أحلامه كشابٍ مراهق. هنا فى السجن استدعيتها فى خيالى مرات عديدة، مرةً جعلتها تهتز كراقصةٍ شعبيةٍ لى وحدى، رقصت على إيقاع طبلة، كانت تهتز مثل سامية جمال. ومرةً تصورتها راقصة بالية مثل فتيات باليه الأوبرا حيث أخذتنى معها لأشاهد العرض، تخيلتها راقصة ترتدى زى البالية وترقصُ أمامى على أطراف أصابع قدميها، تخيلتنى أقعد على السجادة مادًّا قدمىَّ ومُسندًا ظهرى للحائط وأمسك بخرطوم الشيشة وهى ترقص أمامى برشاقة. لو قتل أحدٌ أميرة الفايد لن يُلقى به فى السجن مثلى لأن الجميلات يلتف حولهنَّ الكثير، لن يعرفوا من قتلها، سيبقى مجهولاً وطليقًا. لم يعرف أحد من قتل سعاد حسنى.. الممثلة اللامعة. وإلى الآن لم نعرف من قتل فاتنة السينما الأمريكية إليزابيث شورت، هذا هو مصير الجميلات. أميرة الفايد تمتلك شبكة علاقات تُؤهلها بامتياز لأن تكون ضحيةً لأى من هؤلاء، مجرمون، سياسيون، تجار. سيكون

المحقق فى حيرةٍ شديدةٍ من أين يبدأ التحقيق؟ وكلما فتح بابًا وجد دهاليزًا وفروعًا بلا نهاية، لن يعثر على طرف خيط يُمسك به ليصل إلى فاعل الجريمة، لأنَّها امرأة جميلة ستصبح مثل مارلين مونرو.. أسطورة الجمال التي قُتلت في أوج مجدها في السادسة والثلاثين من عمرها، حيث وُجدت مقتولةً عاريةً في فراشها وكان يعتلي وجهها ابتسامةُ الوداع. مسكين ذلك المحقق الذى سيقع عليه عبء كشف ملابسات مقتل أميرة الفايد، ربما جماعات سياسية أو أجهزة سيادية، أو عاشق مجهول، أو تجار مخدرات أو عصابة دولية لخطف الأطفال، أو سارق بائس مثلى. ستُقيد الجريمة انتحارًا، سيظل جثمانها فى مشرحة زينهم عدة شهور حتى تأمر النيابة بدفنها، لن يسمح رجال الأمن بدفنها نهارًا، ستكون مراسم الدفن ليلاً وفى حضور أفراد قلائل من عائلتها، لن يُسمح للغرباء بالتواجد، سيُسمح بحضور الفلبينية أنجيلا خادمتها المقربة.. حيث ستبكى حرقةً عليها. ما لم يعرفه ضابط المباحث أننى لم أترك شيئًا يدلهم على شخصيتى فى مسرح الجريمة، حتى السيارة الميكروباص استأجرتها ببطاقةٍ مزوّرة من معرض سيارات بمدينة نصر، وبعد الحادثة تركتها على الطريق الدائرى وانصرفت. جدران السجن لم تنجو من المشاحنات السياسية، كيف عبرت السياسة هذه الأسوار العالية، المساجين منقسمون طوال النّهار فى نقاشٍ سوفسطائي لا جدوى منه، الصول طه مدنى يتحدث عن تدفُّق النَّاس إلى الشوارع بشكلٍ مُقلق، العنفُ يتصاعدُ.. ربما ينذر ذلك بشيء. ضحكت وقلت "السجن أصبح المكان الآمِن الآن بعد فوضى الشوارع، عندما أخرج من هنا سأطلبُ من أميرة الفايد أن أتقاعد، يكفى ما فعلته، لم يعد لى طاقة على العمل، سوف أقبض مكافأتى التى وعدتنى بها.. مبلغًا ضخمًا،

بالتأكيد سيكفي ما تبقّى من حياتى كى أعيش مرتاح البال، سأختار وظيفةً أخرى آمنة، سأختار أن أكون فنانًا أرسم لوحات وأتزوجُ من فتاةٍ شقراء، سأحب أن تُشبه أسيل، أعرف أنَّها لا تمتلك مؤخرة تُشبه مؤخرة أميرة، لكن لا يمكن اختزال جمال المرأة فى مجرد مؤخرة، حتى لو كانت تُشبه مؤخرة كردشيان، هى فى النهاية ليست سوى مجرد عضو، لماذا نجعله مركز الاهتمام بجسد الأنثى، المرأة جسد وروح، وأسيل تمتلك جسدًا ممشوقًا رائعًا.

قالت لى حين ضبطتنى أُتابعها وهى تمر من أمامى فى صالة شقتها.. "الرجل الذي تثيره مؤخرة المرأة عندما تمر أمامه يعتبر مريضًا، قد يصل إلى حد الشذوذ في الذوق".

قلتُ لها مداعبًا.. "ردف وسيط كأنّه الجبل المحيط، له تموّج وتراج". السيوطي كتب هذا عن المؤخرة فى "رشف الزُلال في السحر الحلال"، حتى القدماء منذ زمن بعيد فتنهم ردفٌ امرأةٍ يُشبه قُبةً سماويةً صغيرةً.

(18)

لم أعد أُطيق ما يجرى هنا فى شقة أسيل، قررتُ فى هذه اللحظة أن أضع نهايةً لهذا الصراع، أسيل تتمادى فى تعذيبى، تُصمم على إيذائي، لا أعرف لماذا أقف مستسلمًا لتلك الفتاة السادية؟ كلما حاولتُ المقاومة أجدنى ضعيفًا، أسيل تستدرجنى لشيءٍ لا أعرفه، تُريد أن تُلقينى فى بئرٍ عميق، قاومتُ حتى خارت قواى، مارستْ معى ألوانًا شتى من الألم لكى تؤهلنى للحظة تُريدها، بدأت مرحلة الاستسلام.. ربما سلبت قوّتى.. استطاعت أن تُضعف قوى المناعة داخلى تدريجيًّا كأنَّنى واحد من سجناء جوانتانامو. يُؤرقنى الصداع الدائم والكوابيس التي تُطاردنى فيها كلابٌ متوحشة، تنهشُ جسدى في زنزانةٍ ضيّقة ومعتمةٍ. أشعر فى بعض الأحيان أننى أغرقُ فى بئرٍ عميقةٍ، هذا الشعور يلازمنى على الدوام. بدوت هشًّا أمامها، أسيل امتحنت إرادتى، وجدتنى رخوًا، لماذا أضعف أمام فتاةٍ لاهيةٍ، لا تُبادلنى أية مشاعر، جامدة مثل صخر؟ تتفوّه بألفاظٍ بذيئةٍ وتُلقينى فى مطبخها كسلعةٍ نافقةٍ، تتغذّى على جسدى الحشرات، مثل سلة قمامةٍ امتلأت عن آخرها بفضلات الأطعمة وأوراق الكلينكس، روحى تتلصص على جسدى الممزق بطعنات مُديةٍ حادة، تنفجرُ روحى دمًا وأشلاءً. اليوم أحضرت أسيل لوحةً بيضاء ووضعتها على استاند، نظرتْ إلى موقع الاستاند، ابتعدتْ لتتسع الرؤية ثم عادت لتحركه قليلاً حتى صار فى المنتصف حيث تتوسط كنبة الأنترية، طلبت منِّى فى لغةٍ رقيقةٍ لم أعتدها أن أرسمها، تعجبت، طفرت منِّى ضحكة، ضغطتْ بأسنانها على شفتها السفلى ومالت برأسها للأمام. ماذا تظننى؟ هل تتصورنى فنانًا عالميًّا يمتلك خطوطًا مدهشةً يستطيع أن يضعها داخل لوحة تشبه الموناليزا ثم

تخبِّئها خلف المكتبة حتى لا يراها أحد ولا تمتد إليها يد بشر فتظل كنزًا دفينًا؟ تحركتْ صوب الكنبة، جلستْ، لم تعجبها طريقة الجلوس، عدَّلت من جلستها مرةً أو مرتين.. رفعت قدميها عن الأرض وثنت ركبتيها قليلاً.. وضمَّت فخذيها حتى لامست نهديها، مالت برقبتها على حاجز الأنترية حتى لامس ذقنها، بدت كأنّها تُريد أن تقذف روحًا داخل جسدى. تأملتها، تخلت عن شراستها وبدت وديعةً تتأهل لدخول حالة صوفية.. أو ربما هى تدريبات على التمثيل تلقّتها أسيل لتستطيع أن تأخذ الوضع المناسب، يمكنها الانتقال بين المشاعر بسهولةٍ، من الحزن إلى الفرح، من الغضب إلى الهدوء والدعة. يجتاحنى الآن تجاهها شعورٌ غامض بالشفقة عليها كونها تُبدِّل مشاعرها كما تُبدِّل ملابسها، بوسعى أن أهرب، يمكننى فى أى وقتٍ أن أُعد خطةً جيدةً للهرب وأنفّذها، أصبحتُ أخشى المجازفة، الضابط المرابط أسفل العمارة ينتظر أى خطأ أرتكبه حتى ولو كان يسيرًا، ربما لن أتمكن من تكرار المحاولة، وضعتْ أمامى اللوحة البيضاء، جلستْ قبالتى مثل فتاة الموديل على كنبة الأنترية تقرأ مجلة "مدام فيغارو".. وقالت.. "هيا لنبدأ".

لستُ فنانًا يا أسيل، ولا أملك موهبة الرسم، أنا محض قاطع طريق.. وربما خاطف أطفال أو تاجر ترامادول، أُعاقر البيرة وأدخل جسد سعاد ممرضة الدكتور رمزى مُرغمًا، أتجوّل فيه كلصٍّ أختلس اللذة، أشتهى جسد أميرة الفايد لكنّه مُحرّم على مثلى، لا أستطيع أن ألمسه كأنّه جسد مانيكان داخل فاترينة عرض نشاهده ولا نستطيع اختراق الزجاج الذى يحيط به لنلمسه بأيدينا، أنجيلا تدعكه بماء الورد وترش عليه عطرها الفرنسي شاليمار.. المستوحى من قصر شاليمار فى الهند. الفُرشاة التى وضعتها أسيل فى يدى لم تتحرك على الصفحة البيضاء، أغمضتْ عينيها كأنّها ترى شيئًا أعمق، أو ربما تستحضر مشهدًا توارى فى الذاكرة البعيدة، قالت

كأنّها تهمس لى "يجب أن نغادر، لم يعد لنا مكان هنا، الحياة أصبحت صعبةً جدًا لا يستطيع كلانا تحملها، تخلّى عن أحلامك، يجب أن نهاجر، يمكننا أن نهاجر إلى دولة أوروبية أو إلى كندا، العرب الآن يهاجرون إلى كندا، نريد أن تطأ أقدامنا أرضًا جديدة، سنعيشُ معًا فى كندا كما حلمنا، يمكنك أن تحقق أحلامك فى أى بقعةٍ فى العالم، لا أحد سيجعلك تحقق أحلامك هنا، المتناقضات صارت أكبر من تحمُّلها، عقولنا البسيطة الحالمة لن تتحمل بُطء السلحفاة، الأرض هناك مثل الأرض هنا، السلحفاة تحمل بيتها على ظهرها، سنكون مثلها، لن نحتاج إلى أرض، لن نحتاج إلى جذور". أغمضتْ عينيها وراحت فى سُباتٍ وصمتٍ، تناجينى عبر كوةٍ صغيرةٍ تمرر بالكاد روحها الصافية، مسترخيةً على أريكتها، رأسها يتمايل كأنّها تُراقص أحدًا، تعاقر فى إغفاءةٍ حلمًا، وجهًا بلحية كثة عبر غُلالة نفذت بين الحقيقة والوهم، الغلالة تلاشت، همَّت فى استواء واتجهت ناحيتى بخطوات عارضة الأزياء اللبنانية "نانسي أفيونى"، وضعتنى بين ذراعيها وراحت تراقصنى على أنغام هاتفها المحمول "زورونى كل سنة مرة". أنفاسها ساخنة، تتمرغ فى "إستى لودر" الشهير بـ "ليجرز"، يحيلك إلى رائحة جو ربيعى مُشمس بحديقةٍ مبهجةٍ من الزهور. فى لحظة ألق تدخلنى روحها الهائمة مثل طائر أبيض، تتحرك سيقانها برشاقة التانجو، تتمرّ!غ حواسي فى ضوئها، دون أن أدرى وضعت فرشاة "بسيط" فى يمينى، الفرشاة لا تتحرك، كنت أود أن أخبرها أن الفن لا يكمن فى مجرد فرشاة.. بل فى تعاريج الروح. أسيل تعانى كأنّها لحظة نضج يتبعها سقوط مروِّع للروح، تستحضر الفنان المتمرد الثائر الذى حلم بعالم أجمل لكنه اصطدم بواقع مرير وقُتل على كوبري قصر النيل، ربما قُتل أثناء التدافُع الشديد لجماهير خرجت تملأ الشارع وتصرخ. خرجت من يديها بحركةٍ لا إرادية، كنتُ سأقترب منها فى لحظة تماس مدهشة، خفت، كادت تتمكن

منِّى، صرختُ.. أخرجتها، نظرت لى بريبةٍ، جسدى مُدنَّس بالخطايا بينما روحها طاهرة صافية كوميض الفجر، لن يمكننى إذا حركت تلك الفرشاة فى يدى أن أرسم وجه أسيل، طوعًا أو كرهًا علىَّ أن أبذل جهدًا مضنيًا كى أخرج من تلك الغلالة، أخرج من شفافية روحى، أن أتامل لحظة كشف وضعتنى فيها أسيل، وضعتنى على أعتاب انفراجةٍ ربما تلوح فى الأفق. جابر الونايسي الذى يشتاق إلى العودة إلى عالمه كى يمارس ألاعيبه، لماذا لا تردنى أسيل إلى عالمى؟ لن أصلح لدنياها البيضاء، يجب أن تعيدنى إلى تربتى الخصبة، لماذا تصر على الإمساك بي ومعاملتى كفأر تجارب؟ ربما تعيش لحظات مرضية، تتخيلنى كفتاها.. ثائرًا حالما، لست ثائرًا ولا حالمًا، أنا مجرد جرذ وضيع، أريد العودة إلى عالمى السفلى، لا أمتلك روح فنان ولا قلب حالم، ربما أحطم حلمك الآن يا أسيل، تودين أن تلعبي معى لعبةً.. حسنًا، تتقمصين دور ناعسة فى الحكاية الشعبية، تبيع أجمل ما فيها- شعرها الطويل الذهبي- من أجل أن تجلب الدواء لزوجها أيوب، هل هناك امرأة فى هذا العالم تتخلى عن جمالها من أجل رجل؟ ما قيمة جمال المرأة دون رجل يحبها؟ الأميرة ديانا فقدت حياتها من أجل دودي، كافة الدلائل تشير إلى أن ديانا قُتلت في إطار جريمة إنجليزية واضحة، جواسيس بريطانيون زرعوا شريحةً إلكترونية في السيارة التي كانت تستقلها طليقة ولي العهد البريطانى الأمير تشارلز، الشريحة سمحت لأحد الجواسيس بتعطيل مكابح السيارة، مما أدى إلى وقوع الحادث ومقتل الأميرة وصديقها. ربما تحاول أسيل أن تستنسخ فتاها، تريدنى أن ألعب دوره.. وربما أبعد من ذلك.. أن تدخل روحه الطاهرة جسدى المدنس، لا يمكن لروح فنان أن تسكن جسد جابر الونايسي، جسد مليء بالجروح والنتواءات والدمامل، لن ترتاح روح بسيط داخل جسدى، ستتمزق إربًا. ستعافر كى تخرج.. كى أطلق سراحها من جسد مظلم كئيب، ستغادره فى

أية ساعة، لن أقوى على تحمّلها، ستنفجر جمجمتى ويتناثر جسدى أشلاء على كوبري قصر النيل. سأنصح أسيل أن تترفّق بي، يمكنها أن تتواصل مع تجارب الاستنساخ التى لم تتوقف طموحها عند استنساخ نعجة، بل تحاول الآن وباصرار مخيف استنساخ البشر. يمكنهم مسعادتها إن كانت تريد نسخة من فنانها. بالأمس أجبرتنى أن أشرب كوبًا من الشاى الأخضر بدون سُكّر. قالت إنّه كان يحبه، تجرعته مُرغمًا.. لا أطيقه، أريد زجاجة بيرة ستيلا، أريد كأس فودكا أصلي كالذى كانت تقدمه لى أميرة الفايد، أريدها أن تتخلى عن أنانيتها وتطلق سراح أنوثتها قليلا، تُفرج عن جسدها الممشوق وتضغط على زر موسيقى الراب وترقص مثل غانية، تتمايل على إيقاع الطبل مثل فتاة ليل داخل بار إنجليزى، تداعب خيال السُّكارى وتحرّك غرائزهم بقُبلات تنفخها عبر الهواء، يلقون مزيدًا من الخمر فى حلوقهم وهم يتأوهون، يلقون أرقام هواتفهم المحمولة تحت قدميها وكل منهم يحلم أن تتأوه فى مضجعه بعد أن يفرغ من البار. لماذا لا يبدو جسد أسيل فى اللوحة مثيرًا مُفعمًا باللذة. هل كان فتاها يتصورها ربة جمال فحافظ على كبرياء جسدها أثناء تعريته؟ كان مُشعًّا نورًّ أبيض لا مغريًا، أبيًّا متعاليًا، لا متدنيًا سهلا، بيتًا للملائكة، ليس جُحرًا للأبالسة، ربما تلك الألفة التى أشعر بها تجاه الفرشاة واللوحة وبنطاله الجينز الذى ارتديته ذلك المساء بطلب من أسيل.. تردنى دون أن أدرى لحيوات أخرى عشتها فى الماضى السحيق، ربما كنت فنانًا فى زمن غابر وتربّيت فى أسرة أرستقراطية. هذا يفسر تلك الألفة التى لا تليق بقاتل أو مجرم مثلى. ذلك الشعور الذى هاجمنى بقوةٍ وفتَّت روحى، لا أؤمن بنظريات استنساخ الأرواح ولكن لدى شعور قوى يداهمنى بأن لدى خبرات سابقة اكتسبتها فى حيوات قديمة، عشت فى زمن قديم غابر، وربما أرادت أسيل حين أعطتنى فرشاة بسيط أن تردنى إلى حياتى الأولى.

تحب اليوجا.. تعرف تفاصيل عوالم غيبية. قالت لى وهى تزعق فى وجهى وتصرح "بيتر تيكامب أخبرته زوجته ميشيل موشاى أنّه يتقمصُ الفنان الشهير باول غواغوين، غواغوين كان يتعمّد إخفاء وجوه مرسومة فى لوحاته ويطمرها ضمن تفاصيل صغيرة، وهكذا يفعل بيتر تيكامب". أسيل تساعدنى كما فعلت زوجة غواغوين حين ساعدت زوجها فى الترويج للوحاته وفنه، وكذلك تفعل زوجة بيتر، ربما تحاول أسيل هى الأخرى أن تتقمص دور ميشيل.. أو دور بيتيه زوجة غواغوين، لا يوجد شبه بين قاطع طريق وبين فنان، كلما نظرت إلى اللوحة البيضاء لا أجد سوى وجه صفية، أداعب ملامحها وأسير بكفِّى على دوران عينيها اللتين تسددان لى نظرةً حادةً، أسيل تظننى راكب شاحنةٍ يمكنه فى أى وقت أن يطلب من السائق التوقف والنزول منها، وعندها أستقل شاحنةً أخرى فى الاتجاه المعاكس. تعلو ضحكاتى، تضع أسيل كفَّها على فمى، تخشى أن يعرف الجيران بوجوى فى شقتها ويتحرك رجال الأمن لأعلى. بدأت أتشكك فى هواجسها، فتحت الستارة، نظرتُ عبر كوةٍ صغيرةٍ، لم أجد الضابط ولم أر جنوده، اتسعت حدقة عينىّ، أزحت الستارة عن آخرها، انتشر ضوء الشمس وهاجمنى، أغمضتُ عينىّ ورفعتُ ظهر كفِّى اليمنى لأتحاشي الضوء القوى لشعاع الشمس، بدأت أفتح عينيّ ببطء، اتسع أمامى مجال الرؤية، رأيت الشارع والميدان ومدخل العمارة.. والسيارات والنّاس، لم أجد الضابط ولا جنوده.. أدهشنى عدم وجوده، منذ متى وأنا قابع هنا كأسير لدى أسيل؟ ربما ملَّ الانتظار ورحل.. بينما بقيت مُرغمًا رهين محبسي. كانت أسيل تسخر منِّى.. تتلذذ بتعذيبي، لم أصدق أنّه رحل، لم يعد موجودًا، لم أعد مُهددًا ولا خائفًا، يجب أن أتعامل مع واقعٍ جديد، أصبحتُ حُرًّا، يمكننى أن أغادر الآن، عندما تعود لن تجد أسيرها، لماذا لا أشعر بفرحة الحرية؟

(19)

لم يستطع ضابط مباحث قسم العمرانية أن يثبت فى تحرياته التى طلبتها النيابة شيئًا، كتب على مضض "لم تتوصل التحريات إلى معرفة حقيقة الواقعة، لكن لا شبهة جنائية، مجرد حادث لسيارة نتج عنه مقتل الدكتور صلاح رمزى". ما إن اطلع وكيل النيابة على محضر التحريات حتى قرر على الفور الإفراج عنِّى، صرت طليقًا.. حُرًا. بدأتُ رحلتى حين عبرت نفق نصر الدين متجهًا صوب شقة سعاد، عرفت أن هناك حظر تجوال قد فُرض وأن الشوارع ليست آمنة، تسمع بين الحين والحين دفعات من طلقات آلى، أتوقف على يمين الطريق قليلا، أشير لتاكسي فلا يتوقف، ربما هيئتى.. عيناى المشرَّبة بالحُمرة.. شعرى المجعَّد.. ملابسي الرثة. كنت أريد أن أراها لأعرف لماذا أبلغت عنِّى؟ كنت أريد أن أواجهها لأعرف إن كانت تحب الدكتور رمزى فعلاً. فى لحظةٍ تراجعتُ عن تلك الفكرة السخيفة، خطر على بالى أن أتجه إلى ميدان رمسيس ومنه إلى موقف السيارات لأستقل سيارة أجرة إلى الونايسة، سأتجه إلى الجبل مباشرةً، أعرف الصخرة التى يجلس عليها فتحى القبّانى فى انتظار صراخ فريسته وهى تعافر أملاً فى الخروج من المصيدة، أُريد أن أحكى له ما جرى، لم أعد أتحمّل العيش هنا. أخرجت هاتفى، ضغطت على رقم عطية منصور، كنت فى حاجةٍ إلى أن أراه من أجل المال، بعد خروجى من السجن.. جيبوبى فارغة، ظل رنين الهاتف دون رد، حاولت مرة بعد مرة لكنه لم يرد، وفى النهاية أتانى صوت رسالة مُسجلة "الهاتف الذى طلبته ربما يكون مغلقًا.. حاول فى وقت لاحق". ربما يتهرَّب؟ سرت حتى ميدان الجيزة لأركب سرفيس يقلنى إلى بولاق،

طرقت باب حجرته.. لم يفتح، ذهبت لقهوة شعبان.. لم أجده، كان يقضي كل وقته هنا على قهوة شعبان. أخبرنى صبي القهوة أنّه لم يحضر منذ شهر تقريبًا. سرتُ خطوات بعيدًا عن القهوة، أتانى صوت الصبى ينادينى، توقفت واستدرت.. قال:

- آخر مرة حضرت سيدة مثل نجمات السينما.. أخذته فى سيارتها ولم يعد.

ضحك الصبي ونظر إلى الأرض خجلا استدرك حديثه بصوتٍ خفيض:

- لها مؤخرة جميلة تشبه مؤخرة نجمات السينما الأمريكية.

إنها أميرة الفايد.. ليس هناك غيرها، لم أتردد، قررت الذهاب على الفور إلى "فيلا" التجمع الخامس. لم أجدها ولم أجد أنجيلا، ربما عادت إلى شقة الشروق وأخذتها معها، هاتفها لا يرد.. كلما عاودت الاتصال بها. لم أجد سواها، طرقتُ طرقات خفيفة على باب شقتها، واصلت الطرق بهستريا بعدما سيطر علىَّ شعور ضاغط أن رجلاً آخر فى الداخل.. ربما يكون فى سريرها، أوشكتُ على تحطيم الباب، صرختُ "أين أنت يا سعاد؟ أريدك الآن". لم تجبنى.. ولم تفتح الباب. أى حماقةٍ تقوم بها؟ تقتل فتاها الدكتور رمزى ثم تريد أن تنام فى حضنها آخر الليل وأنت تحتسي البيرة وتبلع قرصين ترامادول. قررت أن أذهب إلى العيادة.. ربما تكون هناك، سأعتذر لها وأُقبِّل يديها وقدميها، سأطلبُ منها أن تغفر لى، سأقسم لها أننى لم أكن أعلم أنّها تحبه. هبطتُ درجات السلم دفعةً واحدةً متجهًا صوب العيادة. فجأة توقفتُ.. العيادة مُغلقة بعد مقتل الدكتور رمزى، بدأ اليأس يتسرب إلى داخلى.. ربما لا أعثر عليها. ضغطت بكلتا يدى على رأسي الذى يكاد ينفجر، أنا فى حاجةٍ إلى قرص ترامادول يُعيد لعقلى توازنه، أفقد الآن القدرة على التفكير المتلاحق،

عالم بأكمله ينمحى من أمامى، كل شخوصه تغيب فجأةً. أسير كأنَّ على كتفىّ شكائر رمل، منذ خروجى من السجن لم أعثر على أحد، أين ذهبوا؟ أفكر جديًّا فى الذهاب إلى الونايسة، القاهرة لم تعد آمنةً، سأمكث هناك بعض الوقت، سأقضيه مع فتحى، أصعد معه الجبل لنصطاد الأرانب البرية، سأفكر فى الطريقة التى أكمل بها حياتى. ربما أبحث عن أبي، سأحاول أن أعيده من حضن الغجرية التى أخذته إلى وراء الجبل، أخذته معها إلى بيوتهم كما حكى لى فتحى القبّانى، سأعيد له صفية، أعرف الفندق الذى تقيم فيه، رأيتها وهى تهبط أمامه بفستانها السوارية، سأنفق معظم وقتى فى إقناع أمى صفية بالعودة، سأحكى لها عن هدوء الونايسة وطيبة أهلها، الونايسة لا تعرف المظاهرات ولا يقتل أهلها بعضهم بعضًا من أجل السلطة، ولا يأبهون بأنواع البرفانات الغالية ولا يحطمهم الجدال، سأذكرها حين كانت تدس لى سندوتشات الطعمية اللذيذة فى شنطة المدرسة، وكيف كان الأولاد فى الفصل يخطفونها منى رغبةً فى تذوُّقها. سأعيدها إلى الونايسة بدون مكياج أو فساتين سواريه، سأنزع عنها الإكسسوارات اللامعة، سأعيدها إلى الونايسة كما خرجت.. طازجةً نقيةً مثل شجرة موز تجدد نفسها كل عام. كان قرارًا صائبًا أن أتجه الآن إلى الونايسة، لا جدوى من وجودى هنا. اتجهتُ على الفور إلى موقف عبود، سأبتعد عن القاهرة.. تلك المدينة القاسية، سأسألها أن تخلى سبيلى، تمنحنى مجرد فجوة صغيرة للتلصص على الناحية الأخرى حيث الحياة والضوضاء، مللت أن أشاهد جسدى مجرد كومة لا يخترقها شعاع الضوء الذى يفلت من قضبان شباكٍ عالٍ بمطبخ أسيل، أخشى أن يعود التائه فلا يجد أحدًا فى انتظاره سوى فتحى القبّانى، حتمًا سيأخذنى إلى بيت أبي الذى رحل

خلف الغجرية التى احتلت مكان صفية فى قلبه، رحل تاركًا لي جدران بيت مُغلق فى الونايسة، رحل بعد أن فشل فى أن يعيد صفية إلى داره الباردة، كنت صغيرًا لم أعرف أن العدل لا يوجد إلا فى كتب الفلاسفة وقصائد الشعر.. كما قالت لى أميرة الفايد. لا يوجد ملائكة على هذه الأرض، أدرك الصغير اللاهى أن البيت ليس بيته، وأن الجدران الباردة لن تطيق تحمُّله. أبحث عن أصحابٍ لا يتذكروننى، هل باستطاعة شيخ الجبل أن يمحو ذاكرتى، تاريخى؟ يضع لى حاضرًا أغوص فيه.. تعود فيه أمى صفية ويعود أبي من هجرته إلى مدن الغجر خلف الجبل؟ سيصنع لى حاضرًا لن أركب فيه تلك السيارة المشؤومة التى حملتنى مُجبرًا إلى القاهرة، سأقذف ذلك الشيطان الذى أغوانى بسرقة كيس نقود جامع الونايسة بحجرٍ فى رأسه ويسيل الدم من رأسه، سيتركنى لحالى ويجرى بعيدًا. حتى أسيل كنت سأبحث عنها هنا.. أسيل تشبه فتيات إسبانيا. كيف لحادث بسيط أن يحيلنى إلى كائن بلا مشاعر، لا يعرف السعادة ولا الفرح، لا يعرف الحزن ولا مكابدة الأشواق، تركنى الحادث كائنًا بلا معنى كأننى أسقط من تجويف الزمن، لا ضحك.. لا بكاء، لا حزن.. لا سعادة. هكذا قال الطيب لصديقي فتحى القبانى "الحادثة التى وقعت لصديقك ربما تحيله إلى كائن آخر بلا مشاعر، لا يعرف السعادة، لا يعرف الحب، لا يعرف الخوف ولا الطمأنينة، العطب الذى أصاب جزءًا من خلايا المخ هو الجزء المسؤول عن المشاعر، صاحبك سيعيش حياته القادمة بلا مشاعر، سيعيش مثل جذع نخل أجوف، حياة باردة كشتاء دائم". ربما كان هذا هو العقاب.. أبدو كسلحفاة عاشت طويلا وتريد أن تحتفل بمراسم وداعها الآن.

هامش

الضبابُ يُخيّمُ على القاهرة.. الرؤيةُ ليست واضحةً، لم أعد أمتلك حقيقةً واحدةً. الجدال اتسعت رقعته بجوار أسدى كوبري قصر النيل، قلتُ لمروة عزيز "إنه يعاملنى كفتاة حانة، يتلصص علىّ ليلاً.. يتركنى نائمةً فى سريرى ويقعدُ القرفصاء يبكى بجوار الفوتية بالصالة، بدأت أتلصص عليه، يُثنى ذراعه ويحشرُ رأسه داخلها، أسمعُ نهنهة طفلٍ فقد أمه". كانت مروة عاكفةً على حشو سيجارتها ولفِّها بماكينة صغيرة تُخرجها من حقيبتها وتبدأ طقوسها بوضع التبغ محشوًّا بالحشيش. قلتُ لها وأنا أراقب اهتزاز أصابعها بطريقة عصبية "لا داعى". نهرتنى بشدةٍ، قالت لى "لا أُريد وصايةً من أحد". فى الأيام الماضية تبدو ضعيفةً متشائمةً، أحاولُ قدر الاستطاعة أن أُخرجها من حزنها واكتئابها. حملتُها بين ذراعىّ وحشرتها فى الهيوندای بصعوبةٍ بعد أن زاد وزنها بشكلٍ ملحوظ، كانت مروة رشيقةً نحيفةً.. الآن تتحرك كسلحفاةٍ بطيئةٍ، أين بهجتها؟ طلبت لها النسكافية ومددت لها يدى بمبسم الشيشة، سحبت نفسًا، لم تتذوق طعمه كعادتها.. بل طردت دخانه سريعًا. قالت وهى تتوجّع "شريف بهجت تغير حاله يا أسيل، فى الصباح يُعاملنى كطفلةٍ مدللةٍ يُقدم لى فنجان النسكافية فى سريرى، وفى الظهيرة يبدو عصبيًّا متقلب المزاج، وفى الليل يبدو كسكير يترنّح وهو يغازلنى كامرأةٍ عاهرةٍ بألفاظٍ خادشةٍ تليقُ بامرأة تطوف على طاولات حانةٍ شرقيةٍ، تفتح لهم زجاجات الويسكى وترتدى فستانًا مشقوقًا بفتحةٍ تمتدُ بطوله من الجانب الأيسر حتى أعلى الفخذ، يهتز الفخذ مع اهتزازات مؤخرتها البرازيلية على وقع موسيقى رديئة، مؤخرة تُشبه ثمرة الكمثرى، تبدأ

ضعيفةً وتنتهى باعوجاجٍ إلى الجانبين، مع قاعدتين مملوءتين تمثلان رأسى الفخذين، وهى فى الغالب لينة كالوسادة بينما يغرق وجهها فى مكياج فاقع. يراقصنى بوحشيةٍ على وقع أغنيةٍ شعبيةٍ رديئة، يأكلُ فى المطبخ كخادم ويفترشُ أرضيته وينام، يبدو كطفلٍ لقيطٍ منذ أن فقد أباه". لم أصدق ما روته مروة عزيز لى يومها، بهجت بك أخرج مسدسه "تسعة ملى"، قام بحشوه برصاصةٍ نحاسية، لم يتردد سوى ثوان معدودة.. بعدها حسم الأمر، أطلق النّار على رأسه، تهشمت ووقع قتيلاً، انتحر بطريقةٍ وحشيةٍ بعد أن كثرت ديونه وأصبح مهددًا بالسجن، مروة حكت عن شريف ودموعها تنهمر.. "شريف الفتى الوسيم يجلسُ بلحيةٍ طويلةٍ وملابس رثةٍ فى ركن الصالة، يقرض أظافره، أحيانًا يحطم كل شيء، الصوانى والأكواب الزجاجية والفناجين. قررت أن أحبسه عن العالم الخارجى. فى الأيام الأخيرة كان متقلب المزاج، يبتلعُ حبات الترامادول بشراهةٍ ويحتسي زجاجات البيرة كمدمن، أحيانًا يتأوه، يُصدر أنينًا كأنين المرضى، يتوجّعُ، يصرخُ بهستريا، كل ليلةٍ ينامُ على بلاط المطبخ مسجى بكوفرتة بالية ويثنى أحد ذراعيه ويتوسدها، ينام كطفل. يخرج إلى الشارع كتائه يمضى يومين أو ثلاثة لا أعرف مكانه، أقلق.. أقفز فرحًا لأنّه عاد، أدخل غرفة نومى منتشيةً، أشرب البيرة بعيدًا عنه لتمنحنى القوة، القوة التى أفتقدها فى مواجهته، بعد أن أعد له سندوتشات البرجر وشرائح الطماطم، أسكب عليها عصير الكاتشب الحار الذى يحبه، ينظر لى ثم يتركنى ويمضى إلى ركن الصالة حيث يبتلع أقراص الترامادول ويدخن الحشيش وينام كطفلٍ صغير". كانت منهارة وهى تحكى لى بمرارةٍ عن ذلك اليوم المشؤوم، حين وجدت رسالةً من شريف بهجت على الخاص، ضغطت وفتحتها سريعًا "مروة..

لم أعد كائنًا يصلح لشيءٍ، خذلتك لكن رغمًا عنِّى، كنتُ أُريد أن أتحدى أبي والدنيا وأتزوجك، كنت أنوى أن نقيم حفل زفافنا فى "مينا هاوس". خططت لكل شيءٍ؛ فستان الفرح بتصميم "سالى"، حفلة الزفاف بمينا هاوس، حتى تاجك كملكة.. من باريس. لكن كل شيء تبدد فجأة كأنه سراب، الآن أركبُ الطائرة هاربًا إلى كندا. اعذرينى، لم أعد أصلح لشيءٍ، أنا ركام إنسانٍ وحطام رجل".

سحبتُ نفسًا عميقًا من الشيشة.. وأنا أتطلع إلى خطوط الحزن التى تشكلت على وجه مروة.

(20)

يبدو كلُّ شيء خافتًا.. القمر الذى يغيب هناك فى سماءٍ ملبدةٍ بالغيوم.. ضوء مصباح عامود النّور الذى يحجبه الضباب، الكون يبدو كناسكٍ متبتلٍ فى حضن الظلام، يرتل أدعيته فى هدوء، أحرك عيني فلا أجد سوى السكون، السكون الذى يصلح لحالة المتأمل الذى يمكنه أن يرى فى هذا السكون حياة. حياة تُولد على أطراف الكون بعيدًا عن ضوضاء القلق. لم تكن رتابةً ولا موتًا ولا لحظة كشفٍ ينتظرها صوفيٌّ ناسك يتربعُ جالسًا على صخرة صمّاء أمام سماءٍ عارفة، ينتظرُ دهشة التحقق، لم تكن سوى فراغٍ بحجم الأفق البعيد يقبض على صدرى، أُريد أن أزيح هدأة اللحظة الخافتة عن ناظرى، الرتابة تصنع الملل وتصيب الأطراف بالتبلُّد، كلما رأيتها أمامى تقلب صفحات المجلة النسائية "مدام فيغارو" أتأملها دون أن تشعر بي، لم أعد أفكر فى الهرب منها، أنحنى وأنا أقدم لها النسكافيه، أتراجعُ لأجلس القرفصاء على السجادة كخادمٍ، لم أعد أفكر فى الرحيل عن شقة أسيل، بقيتُ زمنًا لا أحصيه، الضابط رحل هو وجنوده، لم يعد هناك ضابط ينتظر أن أقع كفريسة فى قفصه الذى يشبه مصيدة أرانب فتحى القبانى، بقيتُ كى أدخن بقايا سجائرها وأستعذب طعم سندوتشات الفلافل المشطشة التى تتركها لى على بلاط المطبخ، أنظف لها الغُرف وأغسل الأطباق بمهارةٍ، وأنتظر حتى تعود، أتلصص عليها وهى نائمة، أنفعل كممثل محترف وأرفع حاجبي دهشة وهى تلفق حكايات مصطنعة عن الضابط وجنوده المرابطين أمام العمارة فى انتظارى، أبدو خائفًا وعرق غزير يداهم جبهتى، أزيح الستارة عن آخرها وأطل من الشباك.. حين تغيب أسيل، أتابع هدوء الشارع وسكون الخلائق، أبحث

عن حركةٍ مفاجئةٍ تجرح هذا السكون الممل فى شتاءٍ باردٍ لا حياة فيه، لا أرى سوى ظلالٍ باهتةٍ لأجسادٍ تُسرع الخطى نحو البعيد، خطوات لاهثة تمضى، تتحاشى الصقيع بقفزات سريعة تدفع الدم فى العروق، تخفى أطرافها المرتعشة فى أكمام قماشٍ صوفٍ سميك. لفت انتباهى ما تناهى إلى أذنى من بعيد، ربما أصوات مظاهرة قادمة على كوبري قصر النيل، أصوت همهمة.. أو حين تقترب بعد قليل ستشبه أنات جريح سقط على الكوبري، لا يمكنك أبدًا أن تُميز فى هذا السكون حركة تتناهى إلى الأذن برفق، استرقتُ السمع أكثر، أدركتُ أنّه شيء آخر لا يُشبه الأنين، إنّه يُشبه مطرقةً خفيفةً تدقُّ برتابةٍ كبندول الساعة، ساعة قديمة مُعلقة على الحائط المزركش بورق حائطٍ مهترئ، تبدو منه فجوات إسمنتية، عقارب تتحرك فى رتابةٍ تحصدُ الزمن، الزمن الذى ولى سريعًا، بعيدًا عن الونايسة التى تركتها مرغمًا، أسير خلف خيالات مراهقةٍ هربًا من فضيحة صفية، خيالات ترتعُ بعقلٍ يجلسُ أعلى جسدٍ ممزق، وحيدًا كان يعيش هناك على أطراف الجبل فى قرية الونايسة البعيدة التى تنام كل ليلة فى حضن الجبل، كائنة بمفردها.. وحيدة مثل شيخها الذى صعدتُ إليه ذات يوم حارٍّ من أيام صيفها، كنت صغيرًا، ما إن دلفت إلى حجرته حتى شعرتُ بتلك البرودة التى اجتاحت جسدى، ورعشة الحضور الطاغى للنّاسك الصوفى الذى اختار تلك الربوة العالية ليصنع عالمه الروحانى، هناك فوقها.. بعيدًا عن بيوت الونايسة الفقيرة المعدمة؛ أغلبها من الطوب اللبن، مسقوف بالجريد، اليوم ساقنى إليه فتحى القبانى بعد أن شعر بضيق صدرى ورغبتى الحميمة فى الخروج من عالمى. صعدتُ وأنا ممسك بيده خائفًا أترقب، مد يده راغبًا فى أن أنحنى لأقبِّلها، ترددتُ لبرهة، شعر بترددى، لم أستطع أن أنحنى، وقفتُ مصلوبًا أمامه، دفعنى فتحى القبانى برفقٍ من الخلف كأنّه ينبهنى لضرورة الانحناء على كف الشيخ الممدودة

تجاهى، لكننى ظللت واقفًا.. جمدتُ مكانى، مددتُ يدى، غابت أصابعى الخمسة فى كفّه، سحبتها وأخفيتها في جيبي. رأيتُ ابتسامته الودودة وقد ارتسمت على ملامح غير راضيةٍ عن تصرفي المتسرع، ملامحه المضيئة داخل خيوط تجاعيد وجهه تبدو أنيقةً هادئة، لم أصدق أن لشيخ الجبل كرامات، وكنت أقول لفتحى "لو كان له كرامات ما ترك أهل الونايسة فى فقرهم ومرضهم". أدركت بعد رحلتى أن الونايسة لا تحتاج إلى كرامات شيخ بلحية بيضاء، الونايسة تحتاج إلى المال. كيف أذهب هكذا بين يومٍ وليلةٍ من صخب القاهرة وليلها الساهر إلى تلك البلدة النائية، أسبوع كامل بلا نوم، أقضي يومى ساهرًا أمام حجرتى الصغيرة أرنو إلى الجبل الموحش قُبالة حجرتى فى بيت الونايسة، أبي رحل بصحبة الغجرية وهجر الونايسة منذ أن هجرته صفية، الونايسة لا تحب أبناءها، مثل كل القرى الفقيرة التى تقتل أهلها، تُذيقنا مرارتها، لا أستطيع أن أتقبَّل عقابها القاسي. رأى فتحى القبانى كيف ساءت حالتى، جلس أمامى القرفصاء، قلت: "أريد أن أعود إليها".

- تقصد أسيل؟

- سجنها أوسع وأرحب عندى من فراغ الونايسة الواسع البارد.

- لابد أن تصعد الجبل ثانية.

- لا أستطيع، كيف أصعد وعلى كتفى إحدى عشرة خطيئة؟

فى مطبخ أسيل أجلس القرفصاء، أنتظر عودتها بعد أن أكون قد انتهيت من تنظيف الأطباق، أنتظر سندوتشات الفلافل التى ستجبلها معها وتُلقيها أمامى، أفتح الكيس برفق بينما أسيل تتابع أسيرها وهو يأكل كما تأكل الجرذان، وهى تحكى لى عن الضابط المرابط أمام العمارة ومعه عساكره.. ينتظرون خروجى، وأنا أرتعد خوفا كأسير.. وأضحك داخلى.

@ حقوق الطبع محفوظة
دار النسيم للنشر والتوزيع